الطبقات الصغرى

للإمام أبي المواهب عبد الوهاب الشعراني

بتحقيق

عبد القادر أحمد عطا

مكتبة القاهرة
لصاحبها: علي يوسف سليمان
شارع الصنادقية - ميدان الأزهر بمصر
ص. ب ٩٤٦ - تليفون ٩٠٥٩٩

الطبقات الصغرى

للإمام أبي المواهب عبد الوهاب الشعراني

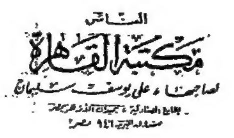
تحقيق

عبد القادر أحمد عطا

الطبعة الأولى

١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠ م

الناشر



مطبعة المجالة الجديدة
٣٨ شارع القويسنى بالظاهر ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو المواهب الشعرانى

تمهيد :

مما لاشك فيه أن قيام خلاف فكرى حول تقييم شخصية ما ، يعطينا حقيقة هامة جداً هى : أن هذه الشخصية التى اختلف العلماء فى فهمها شخصية عظيمة دون مراء .

وفى أغوار العظمة السحيقة لهذه الشخصية ودروبها المتعددة الأنحاء تتجه تيارات الفكر باحثة عن غاية تقف عندها ، ثم تستجمع ما عنّ لها من ملاحظات على الطريق ، لتدلى برأى قاطع حول تلك الشخصية الفذة .

وقد تجتمع الآراء على شىء واحد لا تراه معلناً واضحاً ، ثم تفترق فى تقدير القيمة الحقيقية لهذه الشخصية حسبما بدت لتلك العقول الفاحصة .

أما مايمكن فهمه من الخلاف حول تفسير حقيقة شخصية الرجل العظيم فهو أنه شخصية أفسح وأعمق من أن تسبرها العقول منفردة . وأما ما تطالعنا به التقارير النهائية عن هذه الشخصية فهو الخلاف حولها من الولاية إلى الزندقة ، من الكفر إلى الإيمان ، من القمة إلى الحضيض .

وهكذا نستعرض التراث الرفيع من شخصيات الإسلام فلا نجده يشذ عن هذه القاعدة ، إلا فى تفاصيل الخلاف .

فالحارث بن أسد المحاسبى ، والحكيم الترمذى ، وأبو طالب المكى ، والسهروردى ، وابن عربى الشيخ الأكبر ، والشعرانى ، وأضرابهم . . كلهم تردد العقل البشرى فى تقرير حقائقهم بين الصلاح والفساد ، أو بين الولاية

والزندقة ، أو بين البناء والهدم ، إذا حسنت النية واستقامت عقلية البحث على منهج قويم من مناهج الفكر الرائد المحب للحقيقة .

أما الفكر الحاقد الحاسد فإنه يجمع على التجريح وعلى هدم القيم الإنسانية مهما بلغت من مراتب السمو والجهد العنيف فى سبيل البناء والتعمير .

ولم يكن نصيب الإمام الشعرانى بأقل من أنصباء إخوانه السابقين ، ولن يكون أقل من أنصباء اللاحقين . فقد تركزت حملات الحاقدين عليه فوق رميه بالعظائم فى الدس فى كتبه بما يؤيد الفكرة التى يهدف إليها الحقد المدمر الذى لايدع قمة إلا أهدرها دون وعى . ولكن الحق يعلو دائماً ، والباطل يفضح نفسه بنفسه مهما آزرته الحجة التى تتداعى من تلقاء نفسها مع قليل من الفحص والتدبر .

الشعرانى والتصوف الواعى

لم يكن الإمام الشعرانى إلا صوفياً على قدر عظيم من الوعى والحركة والعمل الدائب لإنقاذ مجتمعه مما حاق به من آلام وبلاء جره عليه نوع من حكم الدم الغريب الأهوج ، إذ اصطلى الشعب المصرى بنار الصراع الذى انتهى بقتل السلطان الغورى ودخول السلطان سليم الأول إلى مصر ، وكان هناك فى مصر طبقات ثلاث :

أولها العلماء : وكان جل هذه الطبقة مسالماً للحاكم الدخيل، طامعاً فى عطائه ونواله ، بائعاً ضميره ومهدراً كرامة بنى وطنه فى سبيل مطامعه الشخصية ، وقد عرض الإمام الشعرانى لكثير من هؤلاء بالتشهير فى معركتهم مع الإمام جلال الدين السيوطى وغيره من العلماء المخلصين من أهل الحق .

وثانية الطبقات : الفلاحون ، وهؤلاء هم الكادحون الذين صورهم الإمام الشعرانى فى كتابه «البحر المورود» بأنهم كانوا يعملون طول العام ، ثم لايكتفى

الحاكم الغريب بأن يستولى على محصولهم من الزرع حتى يستولى على الجاموسة والبقـــــرة .

وثالثة الطبقات هى طبقة الصوفية : وهى تمثل وزارة الإرشـاد فى عصرنا الحاضر ، على مستوى أكثر التصاقاً بالشعب ، وأشـد تلاحماً معـه فى أزقته وحواريه ودروبه ومجتمعاته .

ومع تلاحم الصوفية بالأوساط الشعبية فإنهم كانوا على صلة وثيقة بالعلماء جميعاً . . بالمخلصـين منهم لتنظيم خطط الإصلاح ومقاومة الحـكام الدخلاء ، وبالضالين منهم بالجرح والفضح والتشهير وكشف الخداع .

ولم يكن تقدم العلماء بأهون من تقدم الصوفية الزائفين أنفسهم ، بل إن الضلال هو الضلال ، سـواء أكان فى عالم رسمى دعى ، أو فى عين من أعيان القاهرة أو غيرها من البلاد ، أو متصوف دخيل .

وكان الشعرانى أبرز الشخصيات التى تصـدت لحركة الإصلاح هـذه فى أوساطها جميعاً ، ولاسيا فى بيئة العلمـاء وبيئة الصوفية ، إذا أصبح الفلاحون وأرباب الصنائع فرائس للأدعياء من هؤلاء ومن رجال الحكم الغرباء عن البلاد .

ولقد ألف الإمام الشعرانى رسالة[1] فى هذا المعنى أودع فيها رأيه الصريح بما يدمغ أولئك الذين دسوا على كتبه مايشوه مقاصده القويمة السامية . قال رضى الله عنه وأرضاه :

« صار كل من أذن له شيخه القاصر بأن يستفتح الذكر بجماعة ، أوأذن له بأن يلقن الناس ، أو لم يأذن له ، أو سمع فى خلوته هاتفاً من جنى أو شيطان ، يظن أنه ولى الله ، فيجمع له جماعة من العوام من أهل الصنائع وغيرهم . فتارة

---

(١) الرسالة مخطوطة تحت رقم ٧٧٧ تصوف بدار الكتب المصرية الجزء الاول من الفهرس .

يجلس فى بلده ، وتارة يطوف البلاد ، ويكلف العباد فى هـذه الأيام الـكدرة النـكدة على الخاص والعام ، وهو مع هذا يدعى أنه قائم فى الخلق مقام نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وكفى بذلك جهلاً وسـوء أدب .. أين المقام من المقام ، وأين الملائـكة من الشياطين » .

ولعل هـذه المشاعر النبيلة نحو الشعب هى التى دفعت الإمام الشعرانى إلى تجربة إصلاحية كان مركزها زاويته التى يحتلها مسجده الآن ، حيث جمع فيها عدداً هائلا من طلبة العلم ورواد الطريق ، وأقام بينهم نوعاً من الحياة التعاونية ، وأجرى عليهم ما فتح الله به عليه من صالحى الأغنياء كما كانت تجرى الأرزاق على طلبة الأزهر ، ولـكن بروح الصفاء والحب لا بروح الصراع والقتال ، ولعل هذه المشاعر أيضاً هى التى دفعته إلى التفوق على الأزهر فى رعايته طلابه إذ شمل برنامجه الإصلاحى تزويج الطلاب وتجهيزهم بكل ما يحتاج إليه الأزواج حتى الإقامة كانت مكفولة للطلاب وزوجاتهم فى قسم خاص من حجرات الزاوية .

ولا شك فى أن هذا الاتجاه هو الذى أثار علماء الأزهر على الشعرانى حتى هموا بقتله ولم ينالوا منه شيئاً .

ويوازن الإمام الشعرانى بين دافع الضريبة للماليك أو العثمانيين وبين المستغلين من أدعياء الصوفية فيقول :

« ولو كان من يدعى المشيخة من هؤلاء القاصرين يزن الخراج خمسة أضعافه ويتـكلف مثل ذلك على الـكشاف والقضاة ومشايخ العرب وقطاع الطريق ، ثم بعد ذلك كله يعاف قمحه ، وزرعه ، ولا يجد له شيئاً يأ كله هو وعياله ، وما ثم له ملجأ يلجأ إليه سكت ولم يتـكلم ، ولم يصر له قلب يتـكلم به ، لا بحقيقة ولا بشريعة ، لـكنه غره تهيئة الناس له ما يأ كل وما يشرب هو وجماعته على

السالم من غير غرامة ، فكثر كلامه وصار يقول الخلق : لابد لكل إنسان يريد الطريق إلى الله من أستاذ عارف بالله تعالى . فكيف وهو جاهل بالله ، ومن هو جاهل كيف يدعو الناس إلى من لا يعرفه » ؟

ولئن كانت فكرة اتخاذ الشيخ ، وفكرة عدم تعدد الأشياخ لمريد واحد من أصول السلوك الصوفى المقرر منذ قديم ، إلا أن هذه الفكرة عند مفكر متحرك واع كالشعرانى كانت قابلة للتبديل والتطوير .

فهو يقول : « إن البلاء قد عم الحاضرة والبادية ، وصار سلوك الخلق بما هم فيه من البلاء على اختلاف طوائفهم ، فإن فائدة السلوك تهذيب النفس وتمهيدها ، حتى تذل .

وتأمل الخلق تجد كل أحد نفسه مكسورة بحرفته ، لاسيما الفلاحين والتراسين والطحانين وغيرهم من سائر الحرف الشاقة . فتجد الفاعل منهم فى آخر النهار تهدلت أعضاؤه ، وضعفت قوته إلى الطرف الأقصى ، فأى شيخ من مشايخ هذا الزمان يقدر أن يوصل شخصاً إلى هذا الحد فى يوم بكلامه الذى يتكلمه » .

وكأنه يقول : إن البلاء فى ذاته شيخ مرشد كامل الإرشاد ، قويم للمنهج ، لأنه يصل بالنفس إلى مايصل بها الأستاذ إليه من الحد من كبريائها وغلوائها والاعتزاز بقوتها ، وتوجهها نحو الراحات والرعونات .

والإمام الشعرانى منفسح الفكر لا يجمد عند حدود النقد الموضعى ، بل يتناول جوانب فكرته باحثاً عن القيمة الحقيقية التى لاتتركز فى الفهم الخاطىء للعبادة ، حيث يقصرها بعض القاصرين على نوع من التفرغ الكسول الذى يهدر شطراً هائلا من النشاط البشرى فيقول :

« ولعمرى إن الفلاحين وأرباب الصنائع أحسن حالا وأقرب إلى الله من

هؤلاء المدعين لأنهم طول عمرهم فى أعمال شاقة فى نفع الخلق ، وهؤلاء المدعون طول عمرهم ساعون فى ضرر الخلق ، لأنهم يطلبون التميز عن الخلق ، والتمهيد لطريقهم التى يطلبون » .

ثم يدق فى تنقيبه عن مظاهر الداء الذى استحكم فى قلوب المتحرفين من أدعياء التصوف ، وكيف أنهم برعوا فى التنقيب عن حطام الدنيا ، وفى استنزافه من الجيوب فيقول :

« صار كل مدع ينصب له نقباء كذابين يقولون إن شيخنا هو صاحب العصر ، وكل ذلك مصيدة للدنيا ، وتأمل مدحهم لشيخهم إنما يكون دائما عند الأمراء والأكابر ومشايخ البلاد ونحوهم ممن يتوهمون حولهم البر ، فما ترى أحداً يمدح شيخه عند صبائنى أو فقير أو فلاح صعلوك ، لعلمه أنه ليس عنده شيء يأخذونه » .

ثم يتابع الإمام الشعرانى فى إصراره الواعى هدم هذه الأصنام الكاذبة . فقد استرعى نظره إصرار الكذبة من أدعياء المشيخة على الرفيع من السجاد فى صلاتهم ، فتناول هذه الظاهرة بالنقد إذ يقول :

« كيف تطلب أن تكون من المؤمنين وأنت طالب لأوصاف المتكبرين من الصلاة على السجادة الرفيعة ، وربما دخلت المسجد فسمعت الأذان ورأيت وقوف الناس للصلاة ثم سمعت هذا الكاذب ينادى : أين السجادة ؟

ولعمرى هل رأيت عبداً آبقاً طال عليه الهجران من سيده والغضب عليه ثم يدعى للوقوف بين يديه ، هل يشتغل حينئذ بفرش سجادة » ؟

ولا يكتفى الإمام الشعرانى بالنقد وهدم الأكاذيب والضلالات ، بل إنه رسم الطريق الحق للمعارف الصوفية الجدية للفرد والجماعة فقال :

« أنفع مايشتغل العبد به من علوم الصوفية ما كان متعلقاً بالأدب مع الله ومع خلقه ، وما عدا ذلك فهو اشتغال بما لا يعنى » .

ولقد كرر الإمام الشعرانى هذا المعنى فى كتابه « آداب العبودية » وغيره من الكتب ، حتى لقد جعل هـذا الأدب مع الله تعالى ومع خلقه هو مناط الثواب والعقاب وهو محور السؤال فى القبر ، أما غيره من العلوم فلا يغنى العلم بها إلا بقدر ما يخدم هـذا الأدب الذى يشمل علم الفرائض والواجبات والسنن ، وعلم النفس المستقيمة فى أدائها ، وعلم القلب فى تصحيح العقيدة .

والذى دفع الإمام الشعرانى إلى التركيز على هـذه الفكرة أمران شاعا فى عصره حتى بلغا درجة من انحلال الفكر وانهيار المثل العليا المشروعة فى الإسلام وسلوكه .

أما أول الأمرين فهو اتجاه علمـــاء المنقول نحو التعمق فى علوم النحو والصرف والبلاغة وغيرها من الآلات ـ وليس الغايات ـ حتى شرحوا المتون ووضعوا عليها الحواشى ، ثم التقارير ، ثم التقارير على التقارير ، وحتى تحول البحث فى النحو والبلاغة وغيرها إلى لون من التدريب العقلى على قضايا المنطق وحيثياتها ، تخرج بذلك من إتقان الآلة ، وعن الجدوى العقلية والروحية فى السلوك جميعاً ، ومن هنا افتتح الإمام الشعرانى جبهة كفاح ضد الكثير من علماء النقل حينما قال :

« لن يسألك الله يا أخى عن النحو والصرف والبلاغة ، ولن تحتاج إلى هذه العلوم إلا بقدر ماتصحح فهمك الكتاب والسنة . أما سؤال الله لك فمن أشياء أخرى غير هذه » .

وثانى الأمرين انحراف الفكر الصـــوفى فى عصره وقبل عصره إلى المكاشفات والمشاهدات واعتبارها أصل الفكر الصوفى ، وإغفال قيمتها من حيث هى مقاييس لصحة السلوك أو لفساده ، وشاع هذا اللون من الحديث عن المكاشفات حتى سامها كل مفلس ، وتصدى لها كل أفاق ، وانحرف مفهوم

الولاية عند هؤلاء الأفاقين حتى التمسوه فى ألوان من المرتزقة بما يشبه علوم الأسرار وهو فى الواقع خروج عن نطاق الشريعة جملة واحدة . حتى لقد تجرأوا على دس ألوان من هؤلاء المنحرفين فى طبقاته الكبرى ليتخذوا من اسمه دليلا على صدق تلك الدعاوى المضللة .

استمع إليه يقول : « يجوع أحدهم جوعاً مفرطاً حتى ينحرف مزاجه فينظر شموساً ونجوماً من شدة الجوع ، فيظن أن ذلك من علامات الطريق » وما أمر الخلق إلا بتعليم الآداب المتعلقة بمعاملة الله ومعاملة خلقه ، لا بأن ينظروا شموساً وجبالا وأودية وأقماراً متوهمة .

ولعمرى إذا فرضنا أن أحدهم رأى من منتهى العرش إلى منتهى النجوم وأحاط علماً بجميع ذلك ، هل ذلك يقرب إلى الله تعالى ، وهل يستحق على ذلك جزاء من الجنة أو غيرها ؟

ثم يهدم مذهب هؤلاء الأدعياء من أساسه إذ يقول : « فمثل من يعمل نفسه شيخاً فى هذا الزمان مثال فقيه فتح المكتب قبيل الغروب وقعد ينتظر الأطفال ليقرئهم ويعلمهم ، وكل الأطفال انصرفوا من العصر » .

ولا يغفل الشعرانى مناقشة هؤلاء كجزء من القضية التى أثارها ضدهم ليفضح أكاذيبهم فيقول :

« نقول لأحدهم : من شرط من يلقن الذكر أن يكون ولياً ، فهل أنت ولى ؟ فإن قال : لا ، قلنا : لا يجوز لك أن تتصدر للشيخة . وإن قال : أنا ولى ، سألناه عن علوم الأولياء التى يتداولونها فيما بينهم فيما لم يسطر فى كتاب ولا طرق سمعه علم منها وهى كثيرة ذكرناها فى كتابنا المسمى « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء » .

ويقول فى مناقشة أخرى لهؤلاء الأدعياء : « علامة الجهل بطريق الله

البروز للدعوة من غير داع إلهى يدعوه إلى ذلك . ويقال لهذا المحجوب المدعى ذلك : أمرت بالبروز للدعوة على من هو مثلك أو دونك أو أعلا منك ؟ فإن قال : على من هو دونى . قلنا : لاتصلح لشىء من هذا ، لأن من ذاق طعم الطريق لايتصور أن يرى الخلق دونه ، والذى لم يذق كيف يربى ويسلك .

وإن قال : على من هو مثلى أو أعلا . قلنا : هـذا لايصدر من عاقل ، لأنهما لايحتاجان إليك .

وبهذا الوعى هز الإمام الشعرانى أولئك المتقاعدين المتواكلين الخاطئى الفهم هزاً عنيفاً إذ يقرر ضمناً أن التصوف عمل ويد عليا ، وليس فى التصوف تواكل ولا اعتماد على الغير فى شئون الرزق . فيقول :

« لايصلح أن يسمى شيخاً إلا الفلاحون وأهل الصنائع ، لأنهم هم الذين يطعمون الشيخ فالشيخ مكتوب عند الله من جملة عيالهم » . .

الدس فى كتب الشعرانى

وبمثل هذا الوعى الرفيع تناول الشعرانى قضاياعصره ، واندمج فى صفوف الشعب يتلمس آلامه ، ويكشف عن أمراضه الاجتماعية ، وينقد ويرسم الطريق للإصلاح ، حتى كان هدفاً لسهام طائشة من العلماء وأدعياء التصوف كان أخطرها الدس فى كتبه ولا سيما فى طبقاته الـكبرى .

وقد اعتمد الدساسون على استغلال رسىء لأصلين هامين من أصول التربية الصوفية هما : كراهة الجدل والاعتراض بين المريدين والشيوخ ، ونظرية الأحوال .

أما كراهة الجدل فإنما هى بالنسبة للمحققين من الشيوخ المشهود لهم باستقامة السلوك ، ووضوح الطريقة ، وهضم النفس ، والقيام على أصول الشريعة وسنتها وفلاح المريدين على أيديهم ، ولا يجوز أن ينسحب هذا الحـكم على أى دعى

دخيل أفاق يستأ كل بدينه وبالمثل الإنسانية العليا المشروعة . وإلا فقد ناقش الشعرانى نفسه هؤلاء الأدعياء ، وقطع حجتهم على الصورة التى عرضناها آنفاً .

وأما نظرية الأحوال ، فما الأحوال إلا مشاعر معينة تنشأ فى باطن الإنسان من نتائج العلم أو العمل أو من نتائجهما معاً . وتكون إما قبضاً ، وإما بسطاً ، وإما خوفاً ، وإما اصطلاماً ، وإما سحقاً أو محقاً ، أو غير ذلك من الأحوال المقررة والمبينة الأمارات والعلامات فى مراجع السلوك .

أما الحال الذى لا يكون نتيجة علم أو عمل فإنه محض افتراء ودجل كاذب . على أن هذه الأحوال لا يمكن أن تخرج أصحابها عن قانون الشريعة ، لأنها فى الله ومن الله ، ولا يمكن أن يدفع الله طلابه إلى هدم شريعته ، حتى يتخذ أعداؤه من سلوكهم هذا حجة على صحة التحلل من الشريعة أحياناً وأحياناً على الصورة التى رسمها هؤلاء الدساسون فى الطبقات الكبرى .

دس الدساسون فى الطبقات نماذج من أكابر العارفين مجهولين لأهل العلم بالطبقات ، ونسبوا لأحدهم أنه كان يقف على قارعة الطريق حتى إذا قدم أحد مشايخ البلاد أو التجار راكباً على ظهر حمارته اعترضه الشيخ وراوده على إتيان الفاحشة فى الأتان ، فإذا وافق على المبدأ سمح له الشيخ بعد إنهاء مهمته بالسير ومواصلة السفر ، وإذا أبى تسمرت أتانه بالأرض فلا تستطيع حراكا .

ومن عجيب السبك أن الدساسين نسبوا إلى الإمام الشعرانى أنه سأل شيخ الإسلام زكريا الأنصارى وسيدى محمد بن عنان وغيرهما من كبار العلماء والأولياء عن هذه الظاهرة فقالوا : إن هؤلاء المشايخ يخيلون الناس هذه الأعمال وليست لها حقيقة .

فلا عقلية الشعرانى ، ولا عقلية شيخ الإسلام الأنصارى تسيغ مثل هذا التعليل الساقط ، ولا عقليات القراء من أى نوع كانوا تسيغ أن تكون شريعة

حاوية فيها هذه البهلوانية الفارغة ، وهذه الألاعيب السحرية التافهة ، وإلا فالكل سينخلع من أحكام الشريعة فى لحة عين بحجة التخييل وأمور السيمياء .

فالشعرانى يكتب فى مقدمة طبقاته الكبرى : أنه لم يذكر فيها إلا ماينهض همة المريد إلى الله ، فلايعقل إطلاقاً أن يعرض علينا هذه النماذج باعتبارها حافزاً للهمة نحو الله . ثم يكتب رسالته المخطوطة التى عرضنا نماذج منها ليهدم بها ضلال المضلين فى أمور هى أقل من إتيان الفاحشة مع الحمير .

ونموذج آخر كان يلوط بالعبيد ، وآخر ذهب إلى بيت يطلب يد كريمة منه للزواج بها ، فكشف عن عورته أمامها وأمام الحضور ، وأمرها بتفتيشها حتى لاتعود عليه باللائمة بعد ذلك قوة أو عجزاً . ونماذج غير هذه كثيرة فى منتصف الطبقات .

ونعود فنقول : إن سلوك الإمام الشعرانى وكتبه ودعوته كلها تنأى عن هذه الانحلالات الهادمة ، وتبرأ منها ومن دسها عليه ، ثم إنه لم يغفل التنبيه فى غير موضع من كتبه على أمر هؤلاء الدساسين ، وفى كتاب الطبقات الصغرى هذا نبه على شأنهم فى غير موضع أيضاً .

ومن عجيب الأمر أن تبقى تلك المدسوسات فى كتب الشعرانى إلى الآن ، ويجبن الناشرون والمحققون عن حذفها حتى تعود إلى الطبقات قيمتها العلمية النادرة .

الطبقات الصغرى

هى امتداد الطبقات الكبرى حتى يصل تاريخ الرجال إلى عام ١٠٠٣ من الهجرة . وهى تنقسم إلى :

١ — تاريخ من لقيهم وقرأ عليهم أو أخذ عليهم شيئاً من الطريق .

٢ — من لقيهم ولم يقرأ عليهم ولم يأخذ عليهم شيئاً من الطريق من أهل المذاهب الأربعة .

٣ — جملة من الأحياء للمعاصرين له مات بعضهم بعد تدوين سيرته فأثبت تاريخ وفاته فى نسخته .

وقال : إنه لم يُسبق إلى تدوين سيرة الأحياء ، وإنه عرض سيرتهم والله أعلم بما ينتهى إليه حالهم ، ولكنه تحرى من صدق السيرة ، وصحة القصد ، واستقامة الطريق فيهم ماينبئ بحسن الخاتمة إن شاء الله .

وقال : إنه حذف بعض التراجم ، لأن أصحابها لم يكونوا علموا بتدوين سيرهم ، ثم لاموه على إهمالهم ، فلما علم تشوف نفوسهم إلى الظهور حذفهم ، لأنهم لايستحقون عرض سيرهم كنماذج يحتذى على منوالها السالك ، مادامت نفوسهم حية تتطلع إلى كاذب الشهرة على هذا الوجه .

ومن هنا لايعقل مطلقاً أن ينشر من السير لأولئك الذين يلوطون بالعبيد ويأتون الفواحش مع الجير بأى حال .

أهمية الكتاب :

ترجع أهمية هذا الكتاب إلى أمور نجملها فيما يلى :

١ — يؤرخ الحياة الإجتماعية في عصر المماليك والعثمانيين ولا سيما فى مصر ويكشف عن كثير من المظالم التى وقعت على الشعب فى ذلك العصر ، كما يوقفنا على الحياة الداخلية لكثير من طبقات الشعب .

٢ — يوقفنا على نماذج راقية من عفة العلماء عن الشبهات ، حيث رفضوا أن يعيشوا من معالم القضاء أو الإمامة أو غيرها من وظائف الدولة آنذاك لعدم ثقتهم بحل الأموال المغتصبة من أيدى الكادحين .

٣ — يصور لوناً من الصراع بين العلماء والولاة ، وأهمه ماجرى بين جلال الدين السيوطى وأحد القضاة اللاصقين برجال الحكم .

٤ — يصور الحركة العلمية فى عصره ، وحرية الدرس والتلقى ، واحتساب العلماء لتعليم الطلاب فى سبيل الله ، وإنفاق بعضهم على طلابه .

٥ — يصور إهمال الحكام للمخلصين من العلماء حتى أن بعضهم كان يحتضر ويشكو من أن أحداً لم يكلفْ نفسه مجرد السؤال عنه .

٦ — والكتاب مع ذلك صورة لحياة الشعرانى نفسه ، إذا كان متتبعاً الحركة العلمية فى عصره ، باحثاً عن العلماء يصحبهم ويأخذ عنهم ويقرأ عليهم ، ولا يدع فرصة تفلت من يده مهما كلفه ذلك من مشقة فى سبيل الأخذ عن كبار العلماء ، ولا سيما شيخ الإسلام زكريا الأنصارى وغيره .

٧ — تأريخ لايوجد فى كتاب لحياة علماء الأزهر فى عصره ، وما كانوا عليه من تقشف وزهد فى الحياة ومظاهرها . كما يوقفنا على كثير من مجتمعات العلم فى غير الأزهر فى ذلك العصر .

٨ — الكتاب يفسر كثيراً من الظواهر الصوفية تفسيراً يتمشى مع العقل وأهمها رؤية النبى صلى الله عليه وسلم يقظة والأخذ عنه ، إذ قال : إنها رؤية ليست كرؤية أحدنا الآخر ، وإنما هى رؤية مثالية نورية فى عالم الفهوانية الذى يشبه حالة مابين النوم واليقظة ، ولا شىء غير ذلك .

٩ — وأخيراً فالكتاب جزء من تاريخ مصر والعالم الإسلامى فى فترة

من الزمان توالت فيه قطائع العثمانيين والماليك ، ووقف المنافقون إلى جوارهم وكافح المخلصون بروح الإيمان التى لاتلين حتى انتصروا على عدوهم .

رحم الله الإمام الشعرانى ، وهيأ أسباب نشر تراثه الذى لازال حبيساً فى خزائن المخطوطات ، ونفع المسلمين بكتابه هـذا الذى ينشر لأول مرة ، وجعله خالصاً لوجهه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وتابعيه إلى يوم الدين .

القاهرة ربيع الأول ١٣٩٠ هـ / مايو ١٩٧٠ م

عبد القادر أحمد عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

وبعد : فهذه طائفة من شيوخ عصرنا ممن لقيناهم ، وقرأنا عليهم شيئاً من العلم أو أخذنا عليهم أو أخذوا علينا الطريق ممن لم نذكرهم فى لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية . وجعلناها فصولا ثلاثة . الأول هو هذا . والثانى فيمن لقيناهم ولم نقرأ عليهم ، والثالث فيمن لقيناهم ولازالوا أحياء والله الموفق .

الفصل الأول

منهم :

شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى

الشيخ جلال الدين السيوطى

رحمه الله تعالى

كان رضى الله تعالى عنه يقول : قد أشاع الناس عنى أنى ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة وذلك باطل عنى، إنما مرادى بذلك : المجتهد المنتسب. فإن الاجتهاد على نوعين :

أحدهما : المجتهد المطلق المستقل ، وهـذا النوع قد فقد منذ القرن الرابع [الهجرى] ، ولا يتصور وجوده الآن . ولم يدّعه أحد بعد الإمام الشافعى إلا ابن جرير خاصة .

النوع الثانى : المجتهد المنتسب المطلق . وهـذا هو المستمر الآن [و] إلى أن تقوم الساعة ، وفى أصحاب الإمام الشافعى من هذا النوع كثير : ابن المزنى ، وابن سريج ، والقفال ، وابن خزيمة ، وابن الصباغ ، وإمام الحرمين ، وابن

عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ، والشيخ تقى الدين السبكى ، وولده عبد الوهاب ، فإنه كتب مرة لنائب الشام : أنا مجتهد الدنيا على الإطلاق ، [و] لايقدر أحد [أن] يرد علىّ هذه الكلمة ، وكل هؤلاء مجتهدون منتسبون .

وكذلك القول فى أصحاب الإمام مالك ، كابن وهب وأضرابه ، بلغوا الاجتهاد المطلق على مذهب الإمام مالك . وكذا أبو يوسف ومحمد [من أصحاب الإمام الأعظم] بلغا الاجتهاد المطلق .

وقال الشيخ جلال الدين رضى الله عنه : ومع ذلك فلم يخرج هؤلاء عن قول إمامهم[1] ، فمن أنكر الاجتهاد مطلقاً فهو جاهل .

هذا يا أخى على ماينقله بعضهم عنه فى بيان حكم الاجتهاد ، وقد كان الشيخ جلال الدين رحمه الله تعالى على قدم السلف الصالح من العلماء العاملين ، وكان من الصادقين[2] ، وكان له مكاشفات غريبة ، وخوارق وعلوم جمة ، ومصنفات جيدة كثيرة الفوائد .

وأرسل[3] إلىّ ورقة مع والدى بإجازته لى بجميع مروياته ومؤلفاته ، ثم لما جئت إلى مصر قبل موته اجتمعت به مرة واحدة ، فقرأت عليه بعض أحاديث من الكتب الستة ، وشيئاً من المنهاج فى الفقه تبركاً . ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعى موته ، فحضرت الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأبار ، يمنى فى الروضة عقب صلاة الجمعة ، وفى سبيل أم المؤمنين عند الجامع الجديد بمصر القديمة[4] رضى الله عنه .

---

(١) فى ب ، حـ : عن تبعيتهم لإمامهم .
(٢) فى ب ، حـ : وكل العارفين .
(٣) فى ب ، حـ فأرسل . وفى ب ، حـ أرسل .
(٤) فى ب ، حـ : العتيقة .

وقد جمع الشيخ عبد القادر الشاذلى رضى الله عنه بعض مناقبه فى جزء ، وها أنذا أذكر محض عيونه[1] ، فأقول وبالله التوفيق .

كان الشيخ جلال الدين رحمه الله تعالى مجبولا على الخصال الحميدة فى العلم والعمل ، لا يتردد إلى أحد من الأمراء والملوك ولا إلى غيرهم مدة حياته رضى الله عنه ، وكان يظهر كل ما أنعم الله عليه [به] من العلوم والأخلاق ، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه ، عملا بقوله تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » ، وكان من لا يعرف مقصده يقول : فلان عنده دعوى عظيمة . وسيأتى ما يشهد له أوائل خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى .

وكان رضى الله عنه يفتى بتحريم الاشتغال بعلم المنطق وكتبه ، وقام عليه جماعة ، فقال : وهذه الواقعة من أول وقائعى التى قام على الناس فيها .

وكان رضى الله عنه يقول : ينبغى للمدرس أن يقرأ : تبارك الذى بيده الملك ، وسورة الإخلاص ، والمعوذتين وفاتحة الكتاب كلما يريد أن يدرس ، وينقل فعل ذلك عن شيخ الإسلام (علم الدين)[2] صالح البلقينى رضى الله عنه .

وكان يقول : أخذت العلم عن ستمائة نفس وقد نظمتهم فى أرجوزة ، قال : وهم أربع طبقات :

الأولى : من يروى عن أصحاب الفخر بن البخارى ، والشرف الدمياطى ، ووزيره ، والحجار ، وسليمان بن حمزة ، وابن أبى نصر الشيرازى ، ونحوهم .

الثانية : من يروى عن السراج البلقينى ، والحافظ بن أبى الفضل العراقى ونحوهم ، وهم[3] دون التى قبلها فى العلو .

---

(١) فى حـ : وها أنا ملخص لك عيونه .

(٢) ساقطة من ا . (٣) فى ب : هى .

الثالثة : من يروى عن الشريف ابن الكويك ، والجال الجيلى[1] ونحوهم وهم دون الثانية .

الرابعة : من يروى عن أبى زرعة العراق ، وابن الجوزى ، ونحوهما .
وهذه لتكثير العدة ، وتكبير الحجم[2] وصنف رحمه الله تعالى لما حج (وجاور)[3] كراساً على نمط عنوان الشرف فى يوم واحد ، يحتوى على نحو ومعانى وبديع ، وعروض ، وتاريخ . وكان رضى الله عنه يقول : لما حججت شربت ماء زمزم على نية أن أكون فى الفقه كالشيخ سراج الدين البلقينى ، وفى الحفظ فى الحديث[4] كالحافظ بن حجر .

وكان يقول : انقطع إملاء الحديث بالديار المصرية بعد الحافظ ابن حجر عشرين سنة ، فابتدأت فى إملاء الحديث مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة فى جامع ابن طولون[5] . وأول من أملى الحديث فيه الربيع بن سليمان [الجيزى] صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه . قال : وإنما اخترت الإملاء يوم الجمعة بعد الصلاة اتباعاً للحفاظ المتقدمين ، كالخطيب البغدادى ، وابن عساكر ، بخلاف ما كان عليه العراق وولده وابن حجر ، فإنهم كانوا يملون يوم الثلاثاء .

قال : وكانت بداية إفتائى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة ، وخالفت أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفاً أثبت فيه وجه الحق[6] .
قال : ولما بلغت مرتبة الترجيح لم أخرج فى الإفتاء عن ترجيح النووى ، وإن كان الراجح عندى خلافه .

(قال)[7] ولما بلغت مرتبة الاجتهاد المطلق لم أخرج فى الإفتاء عن مذهب

---

(١) فى ا : البجلى .
(٢) فى ب : وتكثير الحجة .
(٣) ساقطة من ب ، حـ .
(٤) فى ب ، حـ : فى حفظ الحديث .
(٥) فى حـ : ابن طيلون .
(٦) فى ب ، حـ بينت فيه وجه الحديث .
(٧) ساقطة من ا .

الإمام الشافعى رضى الله عنه ، كما كان القفال يفتى بعد بلوغه درجة الاجتهاد المطلق بمذهب الإمام الشافعى ، لاباختياره .

و [كان] يقول : السائل إنما سألنى[1] عن مذهب الإمام ـ لا عن صحة مؤلفاته ـ [ولا ء] ما عندى أنا من العلم . مع أنى لم أختر شيئاً خارجاً عن المذهب إلا شيئاً يسيراً جداً ، وبقية مااخترته هو (من)[2] المذهب ، إما قولا آخر الشافعى قديماً أو جديداً ، أو وجهاً فى المذهب لبعض أصحابه ، وكل ذلك راجع إلى المذهب ، وليس بخارج عنه .

وله من المؤلفات أربعمائة وستون مؤلفاً مذكورة فى فهرست من عشر مجلدات إلى مادونها . وانتشرت (مؤلفاته)[3] فى البلاد الحجازية والشامية ، والحلبية والمصرية ، وبصرى ، والروم ، وبلاد التكرور والمغرب والهند وغيرها .

وكان رضى الله عنه يقول : مما أنعم الله به على[4] هو : أن الجماعة انتصبوا عداوتى وآذونى .

وذلك ليكون [لى] أسوة بالأنبياء والمرسلين . وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه يقول : لما علم الله تعالى ماسيقال فى أنبيائه وأصفيائه من الزور والبهتان قضى على قوم بالشقاء ، فنسبوا له زوجة (وولداً)[5] ، ونسبوا للأنبياء السحر والجنون[6] ، حتى إذا ضاق ذرع الولى من كلام فيه فيه نادته هواتف الحق : أما ترضى أن تكون لك أسوة بالأنبياء فيما نسب إلىّ وإليهم من البهتان ، فهنالك[7] يسكن قلب الولى والحمد لله رب العالمين .

---

(١) فى ا : السائل إنما سألنى . .
(٢) ساقطة من ا . (٣) ساقطة من من ا .
(٤) فى ب : على به . (٥) ساقطة من ب ، حـ .
(٦) فى ب : ونسبوا الأنبياء إلى السحر . (٧) فى ب و حـ : فهناك .

وكان يقول رضى الله عنه : قد رزقنى الله تعالى التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والفقه ، والحديث ، والنحو ، والمعانى ، والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء ، وعلى طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفسلفات[1] ودون هـذه السبعة فى معرفة أصول الفقـه ، والحديث ، والتصريف ، والإنشاء ، والترسل ، والقراءات ، والطب ، والحساب .

وكان رضى الله عنه يقول : قد بلغت مقامات الـكمال فى جميع آلات[2] الاجتهاد المطلق المنتسب ، وصرت بذلك متحدثاً بالنعمة ، لا فخوراً بالدنيا . وأى قدر الدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر وقد آذن[3] الرحيل ، وبدا الشيب ، وذهب العمر . ولو أنى أردت أن أ كتب فى كل مسألة مصنفاً يحتوى على أدلتها ثم آدابها وتفاصيلها وفروعهـا لفعلت . وذلك كله بفضل الله تعالى ، لا بحولى وقوتى .

وكان يقول : قد استنـكر جماعة بلوغى مرتبة الاجتهاد المطلق فى الحديث والفقه والعربية ، لظنهم انفرادى بذلك بعد الأئمة المجتهدين . وغاب عنهم أنها كانت مجتمعة فى الشيخ تقى الدين السبكى رضى الله عنه ، وقبله جماعة اتصفوا بها وبالاجتهاد المطلق لـكن فى الفقة فقط . وأما الجامعون بين هذه الثلاثة علوم فقليل ، ولم تجتمع فى أحد بعد السبكى غيرى .

قال : ولا يُظن أن من لازم المجتهد المطلق أن يكون مجتهداً فى الحديث ، مجتهداً فى العربية ، لأنهم قد نصوا على أنه لا يشترط فى الاجتهاد المطلق التبحر فى العربية ، بل يـكتفى فيها بالتوسط ، ونصوا فى الحديث [على] ما يؤدى إلى مثل ذلك .

---

(١) فى ب ، حـ : الفلسفة . (٢) فى ب ، حـ فى جمى آلات .
(٣) فى ب : قرب الرحيل .

والاجتهاد هو الرتبة التى إذا بلغها الإنسان سمى فى عرف المحدثين حافظاً .
وقد وصف بالاجتهاد المطلق من لم يوصف بالحافظ ، كالشيخ أبى إسحاق[١] الشيرازى ، وابن نصر الصباغ ، وإمام الحرمين ، والغزالى وقد روى هؤلاء الثلاثة فى مؤلفاتهم أحاديث احتجوا بها وهى منكرة ، وقد نبه عليها ابن الصلاح وغيره كالنووى .

فعلم أن خفاء بعض الأحاديث لايقدح فى مقام الاجتهاد ، إذ ليس من شرط المجتهد أن يحيط علماً بكل حديث ، وقد علق الشافعى رضى الله عنه الأخذ بعدة أحاديث خفيت عليه[٢] فى صحتها ، وبعده صحت عند غيره ، بل وقع ذلك لأكابر الصحابة ، كعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كان يقضى بأشياء تخالف الحديث حتى يحدثوه بها ، فيرجع عن أقضيته .

قال : وقد بلغ الشيخ أبو محمد الجوينى رتبة الاجتهاد المطلق ، وألف كتابه المحيط ، والتزم فيه الوقوف مع الحديث ، وعدم التقيد بالمذهب ، فوقع للإمام البيهقى منه ثلاثة أجزاء فى حياة المصنف ، فتعقب فيه أوهاما حديثية ، وأرسل بذلك إلى الجوينى ، من جملتها : الشيخ أهل أن يجتهد ويتخير ، ولكن يحتاج إلى ثبوت الحديث الذى [احتج] به ، فإنه غير ثابت ، فانظر كيف سلم له رتبة الاجتهاد مع خفاء (أمر)[٣] تلك الأحاديث عليه .

قال : وكان سراج الدين البلقينى مجتهداً مطلقاً ، وكان من حفاظ الحديث، ووصفه تلميذه ابن حجر بالحفظ ، وذكره فى طبقات الحفاظ ، ولكن لم يلتزم المرتبة العليا من الحفظ والتعديل ، بل كان معاصره الحافظ أبو الفضل العراقى أحفظ منه ، داخلا فى فن الحديث والفقه ، وكانت عربية البلقينى

---

(١) فى ا : وابن أبى إسحاق الشيرازى .
(٢) فى ا : الأخذ بعدة الأحاديث التى خفيت عليه .
(٣) ساقطة من ب ، حـ .　　　(٤) فى ب ، حـ : والأبرى .

وسطى ، وأما بقية من جاء من المجتهدين من بعد السبكى إلى اليوم فلم يكن فيهم من بلغ رتبة البلقيني في الحديث .

وأما قبل السبكى فاجتمع الاجتهاد في الأحكام والحديث لخلق كثير منهم : ابن تيمية ، وابن دقيق العيد والنووى ، وقبله أبو شامة وقبله ابن الصلاح . أما قبله من المتقدمين فكثير جداً .

وأما الاجتهاد في العربية فلم يكن بعد ابن هشام من يصلح لأن يوصف به غيرى إلا مابلغني عن البادى . وقبل ابن هشام خلائق لايحصون ، كأبي حيان ، والآمدى ، وابن الصائغ ، وابن مالك . قال : وغالب الناس لايعرفون الاجتهاد في الحديث والعربية ، وإنما يعرفون الاجتهاد في الشريعة فقط .

وقد قال الإمام الرازى في المحصول مانصه : المعتبر في الاجماع و [في] كل فن من كان من أهل الاجتهاد في ذلك ولم يكونوا من أهل الاجتهاد في غيره . وألف الشيخ كتبا في بيان شروط الاجتهاد المطلق منها : إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين ، ومنها : تيسير الاجتهاد وماله من الإسناد ، والرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض .

وأطال في ذلك ثم قال : فالعبرة في مسائل الكلام بالمجتهد في الكلام ، وفي مسائل الفقه بالتمكن والاجتهاد [فيه] . فالعبرة بأهل الكلام إذا تكلموا في الفقه ، لا [بأهل] أصول الفقه إذا تكلموا في علم الكلام ، بل من تمكن في الاجتهاد في الفرائض دون المناسك يعتبر وفاقه وخلافه في الفرائض دون المناسك وقال أبو الحسن البصرى : ولا يجوز التقليد في أصول الفقه ، كما لا يجوز في أصول الدين ، ولا يكون كل مجتهد فيه مصيباً ، بل المصيب واحد ، بخلاف الفقه في الأمرين ، قال : والمخطىء في أصول الفقه معذور غير مسلوم .

فهذه ثلاث قواعد خالف فيها الفقه ، أصول الفقه (لأن أصول الفقه)[1] ملحق بأصول الدين ، ومطالبه قطعية . إنتهى .

فانظر يا أخى إلى كلام الإمام أبى الحسن البصرى كيف أطلق الاجتهاد والمجتهد فى أصول الفقه وسائر الفنون .

قال : ويشكل على هذه الاجتهادات الثلاث . فأما الاجتهاد فى العربية فهو أن يحيط بنصوص أئمة الفن ، من سيبويه إلى زماننا هذا ، ويحفظ غالب شعر العرب الذين يحتج بأشعارهم فى العربية ، ولا يضر خفاء بعض ذلك عليه ، وليس المراد حفظها عن ظهر قلب ، وإنما المراد أن يكون له اطلاع على دواوينهم بحيث يعرف محل الاستدلال بذلك من الكتب ، ويكون مع ذلك محيطاً بقواعد النحاة التى بنوا تصرفاتهم عليها ، غير القواعد المذكورة فى واضحات الكتب ، فإن تلك كالأصول لهذه القواعد ، وهذا لايعرفه إلا متبحر فى الفن . قال : وقد بالغت فى هذه القواعد كما تجمع أصول (النحو على مصطلح قواعد النحو)[2] والفقه .

وأما الاجتهاد فى الحديث والفقه فقال الحافظ المزى[3] : أقل مراتب الحافظ أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وبلدانهم أكثر من الذين لايعرفهم ، ليكون الحكم للغالب . وأما مايحكى عن المتقدمين من قولهم : كنا لا نعد صاحب حديث من لايكتب عشرين ألف حديث فهو بحسب زمانهم .

وكان الحافظ ابن حجر يقول : الشروط[4] التى اجتمعت فى الآن أمى

---

(١) مابين الحاصرين سقط من ب ، حـ .

(٢) مابيد الحاصرين سقط من أ ، حـ .

(٣) فى الأصول : المزنى . والمعروف بالحفظ فى الحديث هو المزى .

(٤) فى الأصول : الشروط .

حافظاً ، وهى : الشهرة بالطلب ، والأخذ من أقوال الرجال ، والمعرفة بالجرح والتعديل ، والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم ، وتمييز الصحيح من السقيم حتى يكون مايستحضره من ذلك أكثر مما لايستحضره ، مع استحضار الكثير من المتون ، فهذه الشروط من جمعها فهو حافظ .

قال : وكان الحافظ ابن حجر يحفظ مايندوف على مائتي ألف حديث ، وكان الشيخ عثمان الديمى يحفظ عشرين ألف حديث . وأما أنا فأحفظ مائتى ألف حديث ، ولو وجدت أكثر لحفظت . ولعله لايوجد على وجه الأرض أكثر من ذلك[1] .

وأما الاجتهاد فى الفقه فقد ألفت فيه كتباً .

وله رضى الله عنه سبع سؤالات أوردها على علماء العصر ، ولم يجب عنها أحد ، وهى : ما تقول علماء العصر المدعون الفقه والعلم فى هذه الأسئلة :

[السؤال الأول] : ا ـ ب ـ ت ـ ث ـ إلى آخرها (ماهى هذه الأسماء ، وما اسمها)[2] ، وهل هى أسماء جنس ، أو أسماء عناصر . فإن كان الأول فمن أى الأجناس هى ؟ وإن كان الثانى فهل هى شخصية أو جنسيـة . فإن كان الأول فهل هى منقولة أو مرتجـلة ، وإن كان الأول فمم نقلت ، أمن حروف أم من أفعال أو أسماء أعيان أم مصادر أم صفات . وإن كانت جنسية فهل هى من أعلام الأعيان أو المعانى .

---

(١) بل وجد ، فقد روى ابن الجوزى بإسناده أن أبازرعة الرازى قال : أحفظ مائتى ألف حديث كما يحفظ الإنسان قل هو الله أحد ، وفى المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث ، أنظر (الحدائق لابن الجوزى حـ ا ورقة ٦) مخطوط ٢١٦ حديث دار الكتب المصرية .

(٢) مابين الحاصرتين سقط من ب ، حو .

السؤال الثانى : من وضع هذه الحروف ، وفى أى زمن وضعت ، وماستند واضعها ، هل هو العقل أو النقل ؟

السؤال الثالث : هل هذه الحروف مختصة باللغة العربية ، أم عامة فى جميع اللغــــات ؟

السؤال الرابع : هل الألف والهمزة مترادفان أو لا ؟ وعلى الثانى فما الفرق ؟ وأيهما الأصل ؟

السؤال الخامس : لم أجمع علماء اللغة والعـدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة ، وهل هو أمر اتفاق ، أم لحكمة ؟

- السؤال السادس : كلمات (أبجـد . هوز) إلى آخرها . هل هى مهملة أم مستعملة ؟ وما معنى بهـا ، وما أصلها ، وكيف نقلت إلى المراد بهـا ، وما ضبط ألفاظها ؟

السؤال السابع : ما حكمها فى الابتداء والوقف والمنع من الصرف والتذكير والتأنيث والإعراب واللفظ والرسم وعند التسمية بها ، وما حكمها شرعاً عند نقشها على ثوب أو بساط أو حائط أو سقف ، هل لها من الحرمة ما الحروف المجتمعة أم لا .

فمن أجاب عن هذه الأسئلة فهو من الرجال ، وإلا فلا مزية له على الأطفال . ومن عجز عن ألف ، باء ، تاء ، فلا ينبغى له أن يقرر أبحاثاً . انتهى ما نقلته من خطه رضى الله عنه .

وكان الشيخ العلامة شمس الدين الداودى[1] يقول : رأيت الشيخ وقـد كتب فى يوم واحد ثلاث كراريس تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يملى الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة من غير تـكلف .

---

(١) هو تلميذ الجلال السيوطى ، ومؤلف كتاب طبقات المفسرين ، ولا يزال مخطوطاً .

وكان رضى الله عنه يقول : ماأجبت قط عن مسألة جواباً إلا وأعددت لها جواباً بين يدى الله تعالى إن سئلت عنه . وكان إذا عارضه أحد فى أجوبته يردفها بأجوبة أخرى حتى يبهر المقول .

وغسل قبل موته كتباً لايعلم أهل عصره لها نظيراً . وسرق بعض المعاصرين له كتاباً ونسبه إلى نفسه ، ولم يكن عند الشيخ غيره ، فألف فى ذلك كتاباً سماه « البارق فى قطع يد السارق » . ثم قال : لعمرى إن المؤلف إنما يطلب ثوابه من الله تعالى ، فكيف يطلب أجره على مالم يعمله .

وكان رضى الله عنه أعلم أهل زمانه بعلوم الحديث وفنونه ، حافظاً مدققاً يعرف غريب ألفاظه ، واستنباط أحكامه ، وقد بيض ابن حجر عدة أحاديث لايعرف من خرجها ولا مرتبتها . فخرجها الشيخ وبين مرتبتها من حسن وضعيف وغير ذلك .

وأخبرنى الشيخ سليمان الخضيرى الصوفى رضى الله عنه قال : أرسل شيخ الإسلام الأوجاقى معى عدة أحاديث بيض لها الحفاظ ، ولم يعرفوا مرتبتها إلى الشيخ جلال الدين ، فسلب رواتها ، فردهم الشيخ إلى من لهم رواية عنه ، وبين مرتبتها ، فذهب شيخ الإسلام إليه ، وقبل يده وقال : والله ما كنت أظنك تعرف شيئاً من ذلك ، فاجعلنى فى حل ، فطالما تعديت وتمشيت بلحمك ودمك .

وأخبرنى الشيخ سليمان أيضاً قال : بينما أنا جالس فى الخضيرية على باب الإمام الشافعى رضى الله عنه إذ رأيت جماعة عليهم بياض ، وعلى رءوسهم عمامة من نور ، يقصدوننى من ناحية الجبل . فلما قربوا منى فإذا هو النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، فقبلت يده ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أمض معنا إلى الروضة ، فذهبت مع النبى صلى الله عليه وسلم إلى بيت

الشيخ جلال الدين ، فخرج إلى النبي ﷺ وقبل يده وسلم على أصحابه ، ثم أدخله الدار ، وأجلسه وجلس بين يديه . فصار الشيخ جلال الدين يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض الأحاديث ، وهو صلى الله عليه وسلم يقول : هات ياشيخ السنة . انتهى .

وذكر الشيخ عبد القادر الشاذلى رحمه الله عن الشيخ رضى الله عنه أنه رأى هذه الرؤيا بعينها ، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم : هات ياشيخ الحديث كما سيأتى .

وكان رضى الله عنه كثيراً مايجيب السائل على البديهة ثم يقول : الذهن خوان . افتح الكتاب الفلانى ، وعد من الصفحة الفلانية كذا كذا سطراً تجد المسألة إن شاء الله تعالى كما قلت لك فيفتح الكتاب فيجد الأمر كما قال .

وكان رضى الله عنه يقول بنجاة أبوى النبي ﷺ ، وأنهما فى الجنة . ووافقه على ذلك جماعة من الحفاظ .

وكان رضى الله عنه يجتمع بالنبى صلى الله عليه وسلم يقظة ، وأخبرنى الشيخ عبد القادر الشاذلى : أنه رأى بخط الشيخ جلال الدين ورقة كتبها لبعض أصحابه حين سألة أن يقضى له حاجة عند السلطان الغورى [فيها] ياأخى ، إنى أرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة[1] ، وأخاف أن أجالس السلطان الغورى فيحتجب عنى عقوبة لى . ولكن أسأل لك النبي صلى الله عليه وسلم . فقلت : ياسيدى ، فكم مرة نظرت النبي ﷺ يقظة ؟ قال : بضعاً وسبعين مرة . قال : وقد ألف الشيخ كتاباً سماه « تنوير الحلك ، فى إمكان رؤية النبي والملك » وذكر فيه من كان يجتمع بالنبي ﷺ وبالملك فى اليقظة لا فى المنام من الأولياء

(١) فسر المؤلف طريقة رؤية النبي ﷺ يقظة بما يدفع أى اعتراض .

والصحابة والعلماء ، ولم يذكر فيه شيئاً مما ذكره في هذه الورقة التي ذكرناها .
وكان رضي الله عنه يقول : رأيت النبي ﷺ يقظة فقال لي : ياشيخ الحديث .
فقلت : يارسول الله ، أمن أهل الجنة أنا ؟ فقال : نعم . فقلت : من غير عذاب يسبق ؟ فقال : النبي ﷺ : لك ذلك .

وكان الشيخ عطية الأبيارى يقول : قال لي الشيخ جلال لما سألته يقضي له حاجة عند السلطان : ياعطية ، إني أجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة ، وأخاف أن أجتمع به فيحتجب عني النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال له : اكتم عني ذلك ، ولا تخبر به إلا بعد موتي .

قال الشيخ قاسم الإمام بمقام الإمام الشافعي رضي الله عنه : ومراد من قال إنه رأى النبي صلى الله عليه يقظة انكشاف حجاب القلب ، وليست كرؤية أحدنا صاحبه الآن .

وأخبرني خادم الشيخ جلال الدين وكان اسمه محمد بن علي الحباك . قال : لما وقعت فتنة الشيخ برهان الدين البقاعي في إنكاره على سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه قال لي الشيخ جلال الدين : قم بنا إلى زيارة سيدي عمر ، وكان وقت القيلولة ، فزرناه وطلعنا إلى سيدي عبد الله الجيوشي فوق الجبل ، فرأينا الظل تحت حائط الزاوية نحو ذراع[1] . فجلسنا ساعة فقال لي : تريد أن تصلي في مكة صلاة العصر بشرط أن تكتم على ذلك حتى أموت ؟ فقلت : نعم . فأخذ بيدي وقال : غمض عينيك ، فغمضتهما ، فرمل بي سبعة وعشرين خطوة، ثم قال لي : افتح عينيك . فإذا نحن بباب المعلى[2] . فزرنا السيدة خديجة

---

(١) في ب ، حـ : الذراع

(٢) طى الأرض وارثة محمدية لا اعتراض عليها ، وقد تواترت بها أخبار الثقات

رضى الله عنهما ، والفضيل بن عياض ، وسفيان بن عيينة وغيرهم . ودخلنا الحرم فطفنا وشربنا من ماء زمزم . ثم قال لى : يا فلان ليس العجب من طى الأرض لنا ، وإنما العجب من كون واحد من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا . ثم قال لى : إن شئت تمضى معى ، وإن شئت تقيم حتى تأتى مع الحجاج . فقلت : بل أذهب معك يا سيدى . فمشينا إلى باب المعلا ، وقال لى : غمض عينيك . فغمضتهما ، فهرول[1] بى سبع خطوات ، ثم قال : افتح عينيك . ففتحتهما فإذا نحن بالقرب من الجيوشى . فنزلنا إلى سيدنا عمر ، فركب الشيخ حمارته وذهبنا إلى بيته فى جامع طولون . انتهى .

قلت : ورأيت الشيخ مرة ومعه مفاتيح كثيرة فأعطاها لى وقال : هذه مفاتيح علوى فخذها .

وأخبرنى شيخنا الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى قال : سمعت الشيخ جلال الدين يقول سنة عشرة وتسعمائة : اسمع منى هذا الكلام ، ولا تخبر بذلك أحداً حتى أموت . يدخل سليم ابن عثمان مصر افتتاح عام ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ويبدو خراب مصر ، وتنقرض بياضاتها من ذوى البيوت سنة ثلاث وثلاثين ، فما يصير أحد يشار إليه منهم ، وتخرب خراباً وسطاً سنة سبع وخمسين . ويقف خراج غالب رزقها . وتخرب خراباً شديداً أشد من ذلك سنة سبع وستين .

قلت : وسمعت هذا الكلام من الشيخ أمين الدين سنة خروج السلطان الغورى لقتال السلطان سليم . فأخبرت بعض العلماء الذين ينكرون على الشيخ جلال الدين بذلك فقال : هذا أمر لا يجوز تصديقه . فلما قتل الغورى ودخل عسكر السلطان سليم افتتاح عام ثلاث وعشرين وصاروا يحرقون أبواب بيوت

---

(١) فى ب : فجرى بى

الجراكسة ويقتلونهم ، ويسبون حريمهم ، فقال الشيخ أمين الدين : اذهب إلى ذلك المنكر فقل له : انظر إلى صدق ماأخبر به الشيخ ، لم يخطىء يوماً واحداً . فقال ، وكل شيء يرعد فيه : هـذا موافقة قدر . فرددت جوابه على الشيخ أمين الدين ، فتبسم وقال : وانشقاق القمر للنبي صلى الله عليه وسلم بقدرة الله عز وجل أيضاً . وإنما المعجزة فيه إجابة الحق تعالى سؤاله ، والانتصار له . وكذلك القول فى كرامات الأولياء . ثم قال : يا سبحان الله ، والحسد يؤدى إلى هذا كله ؟

قلت : وقد صدق الشيخ فى العلامة الثانية والثالثة . ووقف خراج مصر فى سنة سبع وخمسين وبقيت العلامة الرابعة ، والله تعالى أعلم .

وأخبرنى الشيخ عبد القادر الشاذلى : لما بلغ الشيخ جلال الدين أربعين سنة أخذ فى التجرد والعبادة والانقطاع إلى الله عز وجل بالاشتغال به صرفاً ، والإعراض عن الدنيا وأهلها ، حتى كأنه لم يعرف أحداً منهم . وشرع فى تحرير مؤلفاته وترك الإفتاء والتدريس ، وألف كتاباً سماه « التنفيس فى الاعتذار عن ترك الإفتاء والتدريس » وأقام فى روضة المقياس ، فلم يتحول منها إلى أن مات . وبلغنا أنه لم يفتح طاق بيته التى على بحر النيل مدة سكناه .

وكانت الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ، ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها . وأرسل له السلطان الغورى خصياً وألف دينار ، فرد الألف ، وأخذ الخصى وأعتقه وجعله خادماً فى الحجرة النبوية ، وقال لقاصده : لا تعد تأتينا قط بهدية ، فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك . وقال له مرة : إن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك والأمراء فى حوائج الناس فقال : اتباع السلف الصالح فى عدم ترددهم أسلم لدين المسلم ، وكذلك فى رد أموالهم عليهم .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين أن الشيخ جلال الدين طلع مرة للسلطان

قايتباى فى حادثة ، وعلى رأسه الطيلسان[1] . فقال له السلطان : أنت مالكى حتى تلبس الطيلسان ؟ لظنه أنه خاص بالمالكية . فقال له الشيخ : هذه عادة حدثت قريباً . وكان الطيلسان فى الزمن الماضى خاصاً بالشافعية[2] إلى زمن الشيخ تقى الدين السبكى . وطال بينهما الكلام فقال الشيخ : (إنما)[3] الطيلسان سنة فى كل مذهب ، ولا يختص بالمالكية . فقال : هذا تكبر وتجبر ، وبالغ فى التكبر . فقال الشيخ : معاذ الله ، بل هو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم أؤاخذ السلطان على ذلك لكونه محذوقاً علىّ من بعض القضاة . ثم إنه تأدب معه فى آخر المجلس وانصرف .

فلما كان بعد أيام بلغ الشيخ أن إمامه ابن الكركى[4] قال له : ليس الطيلسان سنة ، ولو كنت حاضراً عند قوله : سنة ، لقلت له : يعنى سنة اليهود قال الشيخ : بل هو يكفر لكونه رد سنة ثابتة عن النبى ﷺ . ثم إن الشيخ جلال الدين صنف كتاباً حافلا سماه «الأحاديث الحسان فى فضل الطيلسان» .

ثم إن السلطان مرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت ، وطلع له أهل العلم وغيرهم يهنئونه بالسلامة ، فلم يطلع الشيخ إليه ، فأرسل له قاصده فأبى ، فأوقد ابن الكركى عليه النار وقال : هذا عاص لله ورسوله فى عدم إجابة ولى الأمر.

قال الشيخ : ثم إن السلطان أرسل إلى قاصده يخوفنى فى أمور يوقعها بى فقلت لقاصده : قل له : إن لك سلطاناً نيفاً وعشرين سنة ، ما رأينا منك سوءاً فإن لم ترجع عنى وإلا توجهت فيك إلى رسول الله ﷺ يحكم بينى وبينك .

---

(١) لباس خاص بالعلماء والقضاة منذ العصر العباسى

(٢) اضطربت عبارة الأصول هنا تقديماً وتأخيراً وأصلحناها .

(٣) ساقطة من ب .

(٤) هو قاض فى العصر المملوكى ، كان يحط على الصوفية كثيراً .

فسكت حتى طلع مشايخ الإسلام يهنئونه بالشهر ، فاستفتاهم فى عدم الطلوع له لسلوك طريق السلف فى ذلك ، فما منهم أحد نصر الحق وقال بما يلزم من أن عدم دخول العلماء للملوك سنة ، وقالوا : هو سنة السلف الصالح .

فعزلت نفسى من سائر الوظائف التى لهم عليها ولاية ، وألفت فى ذلك كتاباً سميته «ماوراه الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين» . فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه ، وأرسل إلىّ «أمير أخور كبير» والإمام الذى يصلى بالسلطان بكلام طيب يطلب منى الطلوع مثلهم ، فلم أجبهم لذلك ، وأرسلت إلى السلطان رسالة سميتها « الرسالة السلطانية » فيها جملة الأحاديث الواردة فى منع العلماء من التردد على السلاطين . فلما قرأها عليه أمير أخور كبير قال السلطان : والله لو أن الشيخ أخذ عصاه وضربنى بها لأذعنت له بعد هذا ولم أقابله . فساء ذلك ابن الكركى ، وأخذ يغرى على السلطان ، فرجع إلى قوله الأول ، وصار يتوعدنى بالفعل . فقال لى شيخ الإسلام الشافعى : لابأس أن تتلافى خاطر السلطان بإرسال كلام طيب على لسان أمير كبير، فإننا نخاف عليك من السلطان فقلت له : إنى متمسك بقوله ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرة على الحق حتى يأتى أمر الله ، لايضرهم من خذلهم »[1] . ثم إنى توجهت إلى رسول الله ﷺ . فمرض بعد يومين ، واشتد به المرض إلى أن مات بعد يومين .

ولما عمر السلطان الغورى مدرسته المعروفة بالقبة الزرقاء بعث الشيخ بمشيختها فلم يقبل فقال : نرتب لك جوالى كل شهر فلم يقبل . وكان يعتقده اعتقاداً عظيماً .

ولما قام عليه صوفية الخانقاه[2] البيبرسية ، وكان قد قال لهم : لستم بصوفية

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى (٢) الخانقاه بيت يسكنه الصوفية وتجرى عليهم فيه الأرزاق . وينقطعون فيه العبادة والعلم .

وإنما الصوفى من يتخلق بأخلاق الأولياء ، كما يشهد لذلك كتاب الحلية لأبى نعيم ، ورسالة القشيرى ، وغيرهما من الكتب . ومن يأكل المعلوم من غير تخلق بأخلاقهم أكل حراماً .

فلما اشتد الأمر وسعوا فى قتله عند السلطان قال الشيخ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنى أنى منصور عليهم ، ولم تتغير فيه شعرة واحدة . ثم إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد ، ومات على أسوأ حال . وقد رأيت أنا بعينى من صار يتعصب على من يبيع الدجاج ولا يأكل ويدخل بها بيته ، فلا يعود يخرج حتى يتعب صاحبها وييأس من ثمنها ويأكل حراماً سحتاً . وبعضهم ابتلى بالإنكار على العلماء والأولياء حتى ظهرت عليه أمارات الشقاء عندما يموت ، من فقد الشهادة ، وزرقة العينين ، وسوادالجبهة نسأل الله العافية .

ولما أججوا النار على الشيخ عند السلطان العادل وقالوا له : إنه يحط عليك كثيراً ، قال السلطان : لئن رأيته لأقطعنه قطعاً . فقال الشيخ : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنى أن رأسه تقطع فى يوم كذا وكذا . وكان الأمر كما قال الشيخ ، لم يتخلف يوماً واحداً ، وصدق الشيخ .

قال الشيخ عبد القادر الشاذلى : وامتحن الشيخ المحن الكثيرة ، وماسمعته يوماً واحداً يدعو على من آذاه من الحسدة ، ولا يقابله بسوء ، وإنما يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل . وصنف فى ذلك كتاباً سماه : خبر الظلامة ليوم القيامة .

وأخبرنى الشيخ بدر الدين بن الطباخ[1] نفع الله به لما قام الصوفية البيبرسية على الشيخ جلال الدين صنف فيهم كتاباً سألونى أن أعارضه بكتاب فشرعت تلك الليلة فيه ، فإذا بورقة وقعت فى حجرى فى الليل مكتوب فيها :

---

(١) ستأتى ترجمته .

عبدى يامؤمن ، لا تؤذ أحداً من حمل علم نبي . فرجعت عن التأليف وعلمت أن الشيخ جلال الدين على الحق .

وكان الشيخ تقي الدين الأوجاقي يحط على الشيخ جلال الدين ، فاعترف بفضله واستغفر وقال : الأمور كلها لله تعالى ، يعطى العلم لمن يشاء ، لا تحجير عليه ، ولم يزل يعترف بفضله إلى أن مات .

ومناقب الشيخ كثيرة مشهورة . ولو لم يكن له من الكرامات إلا إقبال الناس عليه فى سائر الأقطار وعلى كتبه ومؤلفاته ومطالعتها لكان ذلك كفاية لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف .

ومما انفرد به من المؤلفات ولم يسبقه إليه أحد كتاب « المعانى الدقيقة فى إدراك الحقيقة » ، وكتاب « تزيين الأرائك فى إرسال نبينا إلى الملائك » ، وكتاب « أنموذج اللبيب فى خصائص الحبيب »[1] ، وكتاب « نشر العلمين فى إحياء الأبوين » ، وكتب كثيرة تعلم من كتاب الفهرست .

مات رضى الله عنه فى سحر ليلة الجمعة المباركة ، تاسع عشر ليلة فى جمادى الأولى ، سنة إحدى عشرة وتسعمائة ، وكان مرضه سبعة أيام بورم شديد فى ذراعه الأيسر ، يقال : إنه الخلط الحاد ، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة ، وعشرة أشهر ، وثمانية عشر يوماً . وكان له مشهد عظيم ، ودفن فى حوش قوصون خارج باب القرافة ، رضى الله عنه ، وقبره ظاهر يزار ، وعليه قبة عظيمة . نفعنا الله تعالى والمسلمين ببركته وبركة علومه ومدده . آمين .

---

(١) بل سبق بهذا الكتاب ، بدلائل النبوة لأبى نعيم ، ونهاية السول فى خصائص الرسول لابن دحية ، وخصائص النبي لابن الملقن .

شيخ الإســلام

الشيخ زكريا الأنصارى

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ زكريا الأنصارى رضى الله عنه شارح البهجة والروضة وغير ذلك . انتهت إليه الرئاسة فى مصر ، حتى أنه لم يبق فى مصر أواخر عمره إلا طلبته أو طلبة طلبته . وقرىء عليه شرح البهجة سبعة وخمسين مرة ، حتى أتم تحريره[١] ، ولم ينقل ذلك عن أحد من المؤلفين ، وغالبهم يموت عقب (إنجاز)[٢] مؤلفاته من غير تحرير .

وكان رضى الله عنه مهيب النظر ، مع أنه إذا رآه الإنسان امتلأ قلبه أنساً وذلك علامة ولايته ، فإن الهيبة قد تجتمع مع الأنس فى شخص (واحد[٣]) . وكان يدرس فى علم الفقــه والتصوف ، ولازمته وطالعت له لما كف بصره عشر سنين كأنها من طيبها كانت سنة ، لكونى ما كنت أجد عند أحد غيره ما كنت أجد عنده ، بل أقول : طوبى لعين نظرته ولو مرة واحدة .

وكان رضى الله عنه مقبلا على ربه على الدوام ، لا تكاد تجده غافلا عن عبادة ربه لحظة واحدة ، وكنت إذا أصاحت شيئاً فى الكتاب الذى أقرأ عليه يصير يقول بخفيف صوت : الله . الله . ولا يمكث غافلا عن الذكر لحظة . وكان يشرح كلام أهل الطريق على أتم حال ، ويجيب عنه بالأجوبة الحسنة إذا أشكل على الناس شىء من كلامهم .

وكان يقول : إن الفقيــه إذا لم يكن له معرفة بمصطلح ألفــاظ القوم فهو كالخبز الجاف من غير إدام .

---

(١) التحرير . فى ب (٢) ساقطة من ا .

(٣) وهكذا كان النبى صلى الله عليه وسلم : مــن رآه بديهة هابه ، ومن جالسه أحبه . انظر [سيرة ابن هشام ٢/١٠٧]

ولما وقعت فتنة برهان الدين البقاعى فى إنكاره على سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه أرسل السلطان إلى العلماء ، فكتبوا له بحسب ماظهر لهم وامتنع الشيخ زكريا رضى الله عنه ، ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولى فقال : اكتب وانصر القوم وبين فى الجواب ، أنه لايجوز لمن لايعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقهم بشر ، لأن دائرة الولاية تبتدىء من وراء طور العقل لبنائها على الكشف .

وكان رضى الله عنه من أصحاب الهمم العالية ، ورأيته بعد بلوغ عمره أكثر من مائة سنة يصلى النوافل حال مرضه قائماً ، فيصير يميل يميناً وشمالا ، لايكاد أن يتمالك أن يقف من غير ميل . فقلت له يوماً : مثلكم ياسيدى لا يكلفه الله تعالى بالصلاة قائماً . فقال : ياولدى النفس من شأنها الكسل ، وأنا أخاف أن تغلبنى فأختم عمرى بذلك .

وكان إذا طول عليه أحد فى الكلام يقول : عجل فقد ضيعت علينا الزمان ومكثت أتغذى معه مدة عشر سنين ، فما كان يزيد على ثلث الرغيف من خبز خانقاه سعيد السعداء . وكان يقول : إنما خصصتها الأكل من خبزها لكون صاحبها كان رجلا صالحاً ، وذكرلها أنه عمرها بإشارة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان إذا حضر عنده أكابر العلماء يختفون فى نوره ، حتى كأنهم أطفال بين يديه . وكانت هيبته فوق هيبة السلطان . وقد جالست السلطان الغورى ، والسلطان طومان باى بعد الغورى ، وكانت هيبته ترجح عليهما .

وكان رضى الله عنه كثير الكشف ، لايكاد يخطر فى قلبى شىء بين يديه إلا قال لى : قل ما فى قلبك . وكنت إذا حصل عندى صداع فى رأسى ، وتأوهت وأنا أطالع يقول لى : إنو الاستشفاء بالعلم يذهب . فإذا نويت ذلك شفيت ببركة إشارته ، لا ببركة إخلاصى . وهذا دليل على إخلاص الشيخ

فى العلم ، فإن الإنسان لاينوى الشفاء بعمل لا إخلاص فيه ، بدليل الثلاثة الذين دعوا الله بصالح أعمالهم لما انحدرت عليهم الصخرة فسدت عليهم فم الغار .

وأخبرنى أنه من حين كان شاباً وهو يحب طريق الصوفية ويحضر مجالس ذكرهم ، حتى كان الأقران يقولون : زكريا لايجىء منه شىء فى طريق الفقهاء ، لكونى كنت منكباً على مطالعة رسائل القوم ، مواظباً على مجالس الذكر ، بحيث كان يذهب غالب الوقت فى ذلك .

وأخبرنى أنه سافر من مصر إلى سيدى محمد الغمرى بالمحلة الكبرى[1] ، وتلقن عليه ، وأقام عنده أربعين يوماً ، وقرأ عليه قواعد الصوفية[2] كاملا له ثم رجع إلى مصر ، رضى الله تعالى عنه .

وأخبرنى رضى الله عنه أنه دخل يوماً على سيدى محمد الغمرى الخلوة على غفلة ، فرأى له سبع عيون ، فلما بهت[3] فيه قال : يازكريا ، إن الرجل إذا كمل صار له سبع عيون بعدد أقاليم الدنيا . قال : ورأيته مرة أخرى جالساً فى الهواء فى الخلوة قريباً من السقف[4] .

وقال : ولما اشتغلت بالعلم وبرعت فيه بحمد الله شرحت البهجة ، فلما أتممت شرحها غار بعض الأقران ، فكتب على بعض نسخ الشرح : كتاب الأعمى والبصير ، تعريضاً بى ، بأنى لا أقدر على شرح البهجة وحدى ، وإنما ساعدنى فيه رفيق ، وهو أعمى كنت أطالع أنا وإياه ، فاحتسبت بالله ولم ألتفت

---

(١) ترجم له فى الطبقات الكبرى والمحلة مركز صناعى للنسيج فى محافظة الغربية بمصر .

(٢) الكتاب لازال مخطوطا فى فهرس التصوف بدار الكتب المصرية .

(٣) بهت : أى نظر وهو يحملق متعجباً .

(٤) يرجع ذلك إلى صفاء عناصره النفسية وتغلب الروح عليها ، فيصير روحيا ، والروح علوية تنزع إلى الفوق .

إلى مثل ذلك ، اقتداء بإمامى الشافعى رضى الله عنه فى قوله : أحب أن أقرأ هذه العلوم ولا ينسب إلى شىء منها .

قال : وكان تأليفى لشرح البهجة يوم الإثنين والخميس ، لكونهما ترفع فيهما الأعمال كما ورد فى الحديث ، وكان تأليفى فوق سطح الجامع الأزهر . قال : وكان وقتى رائقاً من الكدورات النفسانية لقلة علائقى فى الدنيا . وكان ظاهرى بحمد الله محفوظاً من الأعمال الرديئة ، وكنت قليل اللهو واللعب ، قليل الذهاب إلى مواضع النزهات . وما سكنت قط على نهر النيل ، أو خليج ، ولكن كان الطلبة إذا أرادوا رؤية البحر أذهب بهم إلى ناحية مسجد الآثار ببركة الحبش ، ويقرءون دروسهم هناك . وكنت أعوم فى النهر كل سنة مرة خوفاً من أن ينفك إدمانى العوم ، فإنه كمال فى الرجل والمرأة .

قال رضى الله عنه : وكنت مجاب الدعوة ، لا أكاد أدعو على من ظلمنى إلا ويقصمه الله تعالى ، ولا لمريض إلا شفاه الله عز وجل ، فلما اشتهر ذلك عنى أشار علىّ بعض الفقراء بستر حالى .

وكان رضى الله عنه كثيراً مايحكى لى من أحواله ثم يقول لى : ياولدى ، اكتم على ذلك أيام حياتى ، فإنى لم أنطق بذلك إلا لك ، فيحصل لى بذلك غاية السرور ، حيث جعلنى محلا لموضع أسراره .

وقال لى مرة : هل هنا أحد غيرك ؟ فقلت : لا ، فقال : أريد أن أذكر لك بداية أمرى لتحيط بذلك علماً . فقلت له : نعم ، فقال : جئت من البلاد إلى الجامع الأزهر وأنا شاب ، فلم أعكف على الاشتغال بشىء من أمور الدنيا ، وكنت إذا جعت فى الجامع واشتد علىّ الجوع أخرج فى الليل إلى الميضأة ، فأغسل قشيرات البطيخ التى حولها فآكلها ، وأكتفى بها عن الخبز ، فأقمت على ذلك الحال سنين ، ثم إن الله تعالى قيض لى شخصاً من أولياء الله تعالى

كان يعمل فى الطواحين فى غربلة القمح ، وكان يتفقدنى ويشترى لى ماأحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب ويقول لى : يازكريا لا تخف علىّ شيئاً . فلم يزل معى كذلك مدة سنين .

فلما كنت ليلة من الليالى أخذ بيدى وأتى به إلى سلم الوقاد الذى فى صحن الجامع الأزهر فقال لى : اصعد إلى آخر هذا الكرسى . فصعدت ولازال يقول لى : اصعد ، حتى صعدت إلى آخره ، ثم قال لى : يازكريا ، إنك تعيش حتى يموت جميع أقرانك ، ويرتفع شأنك ، وتتولى منصب شيخ[1] الإسلام مدة طويلة . ثم انقطع عنى فلم أره إلى يومى هذا .

وكانت أول شهرة الشيخ أيام السلطان خشقدم ، وذلك أنه كان فى باب القصر رجل مشهور بالصلاح يمر عليه السلطان خشقدم ، فوقف عليه يزوره ، فقال الشيخ للسلطان : إن كان لك حاجة فاسأل فيها الشيخ زكريا . فركب السلطان فزاره ، فأسرعت إليه الناس ، فمن ذلك اليوم اشتهر بالصلاح . وقال لى : إنها كانت غلطة عظيمة . فقلت له : ما هى ؟ فقال : توليتى القضاء صيرنى وراء الناس ، مع أنى كنت مستوراً أيام السلطان قايتباى . فقلت له : ياسيدى إنى سمعت بعض الأولياء يقول : كانت ولاية الشيخ القضاء ستراً لحاله ، ولما شاع عند الناس من زهده وورعه ومكاشفاته . فقال : الحمد لله ، خففت علىّ ياولدى .

وقال لى مرة : لما سألنى السلطان القضاء أبيت ، فغمز النقيب وأخرج لى الخلعة ووضعها على ظهرى مفاجأة ، وطلب لى بغلة أركبها ، فقلت : لا أغير حمارتى ، فركبت حمارتى وأنا ألبس الخلعة ، فجاءونى بالبغلة فى أثناء الطريق ، وغلبونى على ركوبها فركبتها إلى البيت . وقال لى السلطان مرة : لقد شاورت

---

(١) فى ب : مشيخة الإسلام .

نفسى أن آخذ بلجام بغلتك وأمضى معك إلى بيتك ولى الشرف بذلك .

قال : ولم يكن أحد يحمل نصحى بالـكلام الجافى الخالى من المداهنة مثل السلطان قايتباى ، ولو قلته لأحد من العلماء فى هذا الزمان لعادانى طول عمرى . قال : وكنت إذا تعذر علىّ مشافهته بالنصح أتعرض له فى الخطبة بذلك الأمر خطاباً عاماً للحاضرين ، فيلحق هو بذلك ، فإذا سلمت من صلاة الجمعة قام إلىّ وسلم علىّ وقال : جزاك الله خيراً عنا فى هذا النصح .

ثم لم تزل الحسـدة يزجون إلى السلطان ، ويظهرون له المحبة والتأثر من وعظى هـذا له ، و [فى] أنه يرسل إلىّ يمنعنى من التعرض له فى الخطبة حتى قال لهم: وماذا أقول لشخص يبصرنى بعيوبى وينصحنى . ثم إنى أغلظت عليه يوماً فى النصيحة بحضرة بعض الأمراء والأكابر ، فتغير[1] منى ، فتقدمت إليه ثم أمسكت يده وقلت : يامولانا السلطان ، إنما أعظك بأمور لأنها تقضى عليك ، وأخاف على جسمك هذا أن يصير فحماً من فحم جهنم . فصار السلطان ينتفض ويبكى .

وقلت له مرة فى الخطبة : تنبه لنفسك يامن ولاه الله أمور العباد ، وتفكر بداية أمرك ، وما كنت فيه ، وحالك اليوم . قد كنت عدماً فصرت وجوداً وكنت كافراً فصرت مسـلماً ، وكنت رقيقاً فصرت حراً ، وكنت مأموراً فصرت آمراً ، وكنت أميراً فصرت سلطاناً . فلا تقابل هـذه النعم بالتجبر والتكبر ، وتنسى مبدأك ومنتهاك ، ووضع أنفك فى التراب حين تموت[2] ، ثم يأكلك الدود وتصير تراباً . فبـكى السلطان ثم قال لمن حوله من الأمراء : إذا أبعدت هذا فمن يقول لى هذا الوعظ .

---

(١) فى الأصول : فتطور ، ومااخترناه أوضح . وهما بمعنى .

(٢) فى الأصول : حتى تموت . ومااخترناه أصح .

وأخبرنى يوماً أن الخضر عليه السلام كان يجتمع بسيدى على النبتيتى الضرير[1] ، فسأله يوماً عن أحوال علماء العصر ، فصار يقول : ونعم ، فسأله عنى فقال : ونعم ، إلا أن عنده نفيسة (نقيصة) ، فقال : يتوب منها . ولم يبين له الخضر ذلك . فتنكرت على أفعالى ، وصار عندى تطير من جميع أفعالى . فأرسلت أقول لسيدى على : إذا رأيته مرة أخرى فاسأله يبين لك النقيصة لأتوب منها ، فرآه فأخبره فقال له : إذا كاتب الأمراء فى حاجة يقول لقاصده : قل : هذا الكتاب من الشيخ زكريا . فيسمى نفسه شيخاً . قال : فمن ذلك اليوم ما تلفظت بهذه الكلمة .

وقال لى مرة : كنت كثير الاعتكاف فى خلوتى فوق سطح الجامع الأزهر فدق علىّ رجل الباب ، ففتحت له فقلت : ماحاجتك ؟ فقال : قد كف بصرى فدلنى الناس عليك ، وعلى فضلك ، تدعو لى بالشفاء فيرد الله علىّ بصرى . قال : وكان لى علامة فى الدعاء المجاب وغير المجاب ، فرأيت علامة الإجابة حين توجهت إلى الله تعالى ، ثم خفت الشهرة ، فقلت : خذ هذا الدرهم وامض إلى العجمى الذى تحت البرقوقية ، فقل له : بعثنى زكريا إليك لتعطوق بهذا الدرهم توتيا جافة . قال : فمضى الرجل وأخذ التوتيا ورجع إلى . فقلت له : لا يرد الله عليك بصرك فى مصر ، وإنما يرده عليك فى « قطية » فسافر ، وإذا رجع إليك بصرك فلا ترجع إلى مصر فى هذه السنة .

قال الشيخ : فوصل إلى [بيت] المقدس بصيراً ، ومكث يكتب مصاحف وكتب علم ، وأرسل لى كذا وكذا كتاباً بخطه ، ولم يزل بصيراً إلى أن مات .

وكان رضى الله عنه كثير الصدقة سراً وجهراً ، ولكن كانت صدقته سراً أكثر ، ومارأيت فى العلماء والصالحين أكثر صدقة منه ، وكان له جماعة

---

(١) ترجم له فى الطبقات الكبرى

يتصدق عليهم كفايتهم من يوم أو جمعة أو شهر ، وكان كثيراً مايعطى كل وارد عليه يوم تهنئته بالشهر ، ولكل واحد مقام عنده فى العطاء ، من القضاة والعلماء وطلبة العلم والمساكين . فنهم من له كل شهر عشرة أنصاف ، ومنهم من له خمسة أنصاف ، إلى نصف ، إلى عثمانى .

وكان غالب الناس يعتقد فى الشيخ قلة الصدقة من كثرة إخفائها ، وكان إذا جاءه فقير يطلب شيئاً يقول لى : هل هنا أحد ، فإن قلت له : نعم ، قال : قل له يأتينا فى غير هذا الوقت . وكان فقير من الصعيد له عليه مرتب كل يوم فيقول : زرت سيدى عبد القادر الجيلانى البارحة ، وزرت النبى ﷺ البارحة وزرت أبا الحجاج الأقصرى ، والشيخ ساكت . فقلت له يوماً : إنه لم يلحق هذه الأماكن ، فقال الشيخ : يحتمل أن يكون صادقاً ، فإن الأمر ممكن ، فإن الدنيا خطوة مؤمن[١] .

ورأيت له مرة رؤيا حسنة لم أذكرها له ، فلما جلست بين يديه للمطالعة فى شرح البخارى قال لى من ذات نفسه : قف واذكر مارأيت الليلة . فقلت : رأيت أنى معكم فى مركب وأنت جالس على يسار الإمام الشافعى ، فقلت لى : سلم على الإمام ، فسلمت عليه ودعا لى ، والمركب مقلعة فى بحر مثل عباب النيل ورأيت المركب كلها مفروشة بالسندس الأخضر ، وكذلك القلع وحباله كلها حرير أخضر ، ومتكآت خضر . فما زلنا مقلعين حتى انتهينا إلى جنينة عظيمة أصولها فى ساحل البحر ، وثمارها مدلاة من شراريف الحائط ، فطلعت أنا إلى

(١) هناك وصية النبى صلى الله عليه وسلم تشير إلى طى الأرض . أخرج ابن السنى فى باب الوصية للمسافر من عمل اليوم والليلة قول النبى صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالدلجة ، فإن الأرض تطوى » وكان من دعائه فى السفر : « اللهم ازو لنا الأرض .

إلى البستان من المركب ، فرأيت جوارى حسان يجنين من الزعفران فى قفاف بيض ، على رءوسهن كل قفيفة من الزعفران قدر باق الجزم ، قدر أسباطة البلح فاستيقظت فقال لى : إن صدق منامك سوف أدفن بالقرب من الإمام الشافعى لسكون المركب جمعتنى أنا وإياه .

قال : وكان حاضراً عندنا الشيخ جمال الدين الصافى ، والشيخ أبو بكر الظاهرى . فلما توفى الشيخ فتحوا له فسقية فى باب النصر ، فقال الشيخ جمال الدين : أين رؤياك ؟ فقلت له : إن الشيخ قال : إن صحت رؤياك . فبينما نحن كذلك وقد كفن الشيخ ، وما بقى إلا الحل ، جاء قاصد « خير بك » فقال : إن ملك الأمراء ضعيف ، ولا يستطيع أن يأتى إلى باب النصر ، ومقصده من فضلكم أن تحملوه إلى سبيل المؤمن ليصلى عليه ، فحملوه . فلما صلى عليه ملك الأمراء قال : ادفنوه عند الإمام الشافعى تجاه قبر الشيخ نجم الدين الخبوشانى ، المطل عليه الشباك ، قبالة وجه الإمام الشافعى ، فكان الأمر كذلك .

وكانت جنازته مشهودة ، ما رأيت أكثر خلقاً منها ، وقد ألبسنى خرقة الصوفية ، وأرخى لى العذبة ، ولقننى الذكر . فبينى وبين سيدى أحمد الزاهد رجلان ، لأن الشيخ أخذ عن سيدى محمد الغمرى عن سيدى أحمد الزاهد ، ولا أعلم الآن فى مصر أعلا من هذا السند . فإن غالب الناس بينه وبين سيدى أحمد الزاهد أربع رجال أو ثلاثة .

ولما توفى رضى الله عنه أظلمت مصر ، فكان فيها كالشمس رضى الله عنه فطوبى لمن رآه مرة . مات رضى الله عنه فى ذى الحجة الحرام سنة نيف وعشر وتسعمائة .

شيخ الإسلام
برهان الدين بن أبي شريف

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف الشافعي ، رضي الله تعالى عنه . كان شيخاً عالماً ورعاً زاهداً متمكناً في علوم الظاهر والباطن . صحبته رضي الله عنه نحو خمس سنين .

وكان من المقبلين على الله عز وجل ليلا ونهاراً ، لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة يكتبها عليه كاتب الشمال . وكان لا يتردد إلى أحد من الولاة أبداً . وكان الإنسان إذا عرض عليه بعض محفوظاته يتلجلج من شدة هيبته ، فيباسط الصغير حتى يهدأ روعه .

وكان له صبانة في القدس يعمل فيها الصابون ، ويتقوت منها ، وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئاً ، وكان قوالاً بالحق ، أماراً بالمعروف ، لا يخاف في الله لومة لائم . وعارضه السلطان الغوري في واقعة فما أفلح بعدها أبداً ، وسلب ملكه ، فكان الناس يقولون : جميع ما وقع للغوري ببركته . توفي رضي الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة رضي الله عنه .

شيخ الإسلام
الشيخ كمال الدين الطويل

ومنهم شيخنا الشيخ كمال الدين الطويل ، رضي الله عنه ، كانت الأنوار تخفق على وجهه . وكان رضي الله عنه إماماً في العلوم والمعارف ، متواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يكاد جليسه يمل من مجالسته . انتهت إليه الرئاسة في العلم ، ووقفت الناس عند فتاويه . وكانت كتب مذهب الإمام الشافعي نصب عينيه لاسيما كتب الأذرعي والزركشي .

وكان من أولاد الترك . وبلغنا أنه كان فى أيام صباه يلعب بالحمام فى الريدانية[1] . فمر عليه سيدى إبراهيم المتبولى[2] رضى الله تعالى عنه وهو ذاهب إلى « بركة الحاج » . فقال : مرحباً بالشيخ كمال الدين شيخ الإسلام . فاعتقد الفقراء أن الشيخ يمزح معه ، إذ لم تكن عليه أمارات الفقهاء ، فمن ذلك اليوم ترك لعب الحمام ، واشتغل بالقرآن والعلم ، وعاش جماعة سيدى إبراهيم المتبولى الذين ظنوا أن الشيخ يمزح معه حين لقبه بشيخ الإسلام حتى رأوه تولى مشيخة الإسلام ، فظهر لهم صدق الشيخ .

ولما دنت وفاة الشيخ كمال الدين رأيت سيدى إبراهيم فى المقام فقال لى : قل للشيخ كمال الدين يتهيأ للموت ، ويكثر من الاستغفار ، فقد دنا أجله ، فأعلمته بذلك ، فقال : سمعاً وطاعة . فعاش بعد ذلك شهراً ونصف شهر .

فانظر يا أخى ملاحظة سيدى إبراهيم له أول أمره وآخره ؟ ومناقبه كثيرة توفى بعد دخول ابن عثمان مصر ، ودفن بتربته خارج باب النصر ، قريباً من المدرسة الحاجبية ، رضى الله عنه .

شيخ الإسلام
الشيخ برهان الدين القلقشندى

ومنهم شيخنا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندى رضى الله تعالى عنه . كان عالماً صالحاً زاهداً ورعاً ، قليل اللهو والمزاح ، مقبلا على أعمال الآخرة حتى أنه ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل . انتهت الرئاسة إليه فى علوم السنة والكتب الستة والمسانيد والأجزاء .

---

(١) مكانها الآن العباسية .

(٢) ترجم له فى الطبقات الكبرى .

وسمعت عليه بقراءة الشيخ شمس الدين المظفري « الغيلانيات » (١) ومسند عبد الله بن حميد . وأجازني بروايتها كلهـا . وكان رضي الله عنه إذا ركب بغلته وتطيلس ، يصير الناس كلهم ينظرون إليه من شـدة الهيبـة التي [كانت] عليه .

مات رضي الله عنه قبل دخول السلطان سليم إلى مصر ، وكأن الشمس كانت في مصر فغربت . رضي الله عنه .

وكانت جنازته حافلة غاصة بالأمراء والصالحين . رضي الله عنه .

شيخ الإسـلام
شهاب الدين الشيشيني

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى شيخ الإسلام شهاب الدين الشيشيني الحنبلي ، رضي الله عنه . كان عالماً زاهداً تقياً ورعاً عفيفاً متواضعاً . كلما رأيته يدرس العلم على نخ حلفا (٢) ليس فوقه شيء .

وكان رضي الله عنه إماماً في التفسـير والمذهب . وكان إذا دخل جامعاً وقت صلاة العصر مثلا يصعد الكرسي بعد الصـلاة ، ويتـكلم على تفسير (٣) آية أو آيتين بكلام مشحون بالزواجر حتى يبكي الناس ، ثم يدعو وينزل .

وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسـلام شيئاً ، ودخلت له مرة فرأيته يدور مواسير النزل لحبا كين في حارته ، ويتقوت منها . وكذلك كان ولده الشيخ عز الدين يفعل لما تولى مشيخة الإسلام . وترك ذرية طاهرة . رضي الله عنه . مات سنة تسع عشرة وتسعمائة هجرية .

---

(١) هي الفوائد العاليات أو «الغيلانيات» للدارقطني مخطوطة بفهرس الحديث دار الـكتب المصرية (٢) أي على شبه الحصير من الحلفاء .

(٣) في ب : في تفسير .

الشيخ نور الدين الأشمونى

ومنهم شيخنا الإمام العالم الصالح الورع الزاهد : نور الدين الأشمونى الشافعى رضى الله عنه . كان متقشفاً فى مأكله وملبسه وفراشه . صحبته نحو ثلاث سنين كأنها كانت سنة من حسن سمته ، وحلاوة لفظه ، وقلة كلامه ، ولم يزل على ذلك حتى مات رضى الله عنه . نظم المنهاج فى الفقه وشرحه ، وشرح ألفية ابن مالك شرحاً عظيماً . رضى الله عنه .

الشيخ عبد القادر ابن النقيب

ومنهم شيخ الإسلام والمسلمين ابن النقيب ، رحمه الله تعالى ، وهو الشيخ محيى الدين ، واسمه عبد القادر . قرأ العلم على جماعة من الأعلام ، منهم الشيخ كمال الدين بن أبى شريف ، وشيخ الإسلام زكريا [الأنصارى] وأضرابهما . تولى قاضى القضاة مرات .

وكان لا يصلى الصبح صيفاً و(لا)[1] شتاء إلا فى الجامع الأزهر ، يمشى كل يوم من المدرسة الناصرية إليه . وكان رضى الله عنه متواضعاً كثير البكاء من خشية الله تعالى . رضى الله عنه آمين .

الشيخ سعد الدين الذهبى

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى العالم العلامة الصالح الورع الشيخ سعد الدين الذهبى الشافعى رضى الله تعالى عنه . كان ورده كل يوم ختماً شتاء وصيفاً . وكان خلقه واسعاً ، إذا تجادل عنده الطلبة يشتغل[2] هو بتلاوة القرآن حتى يفرغ جدالهم . وكان يقضى جميع حوائجه من السوق ويحملها ولا يمكن

---

(١) سقطت من ا (٢) فى حـ : اشتغل .

أحداً [أن] يحملها معه . ولم تزل القفة بيده إذا مشى وهو يتلو القرآن سراً .

وكان لا يقبل من أحد صدقة على خلاف ماعليه الفقهاء ، وكان رضى الله عنه كثير الصدقة . وأوصى بمال جزيل للفقراء والمساكين . توفى رضى الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة هجرية ، ودفن خارج باب النصر . رضى الله تعالى عنه.

الشيخ عبد الحق السنباطى

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة الصالح الورع الشيخ عبد الحق السنباطى الشافعى ، رضى الله عنه . كان طارحاً للتكلف ، انتهت إليه الرئاسة فى الفقه والأصول وغيرها من العلوم . وكنت إذا رأيته شهدت له بالصلاح قبل أن تخاطبه . مات رضى الله عنه بمكة المشرفة ، ودفن بباب المعلا ، سنة (ثلاثين)[1] .

الشيخ جلال الدين السكرى

ومنهم شيخنا الشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ جلال الدين السكرى ، والد الشيخ أبى الحسن رضى الله تعالى عنه . كان من العلماء العاملين ، وله القدم الراسخ فى علم التصوف والفقه والأصول وغيرها .

وقد أخذ العلم عن جماعة منهم العلامة الشيخ جلال الدين البكرى ، والشيخ يحيى المناوى[2] وأضرابهما ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس وهو ببلاد الفيوم ، فأفتى بها ودرس ، وانتفع به خلائق لا يحصون .

ثم رحل إلى مصر بأولاده وعياله بإشارة الشيخ عبد القادر الدشطوطى رضى الله عنه ، فاستخلفه على عمارة الجامع التى عزها بمصر وغيرها . فعمرها

---

(١) سقطت من ا

(٢) هو صاحب الكواكب الدرية فى طبقات العلماء والصوفية .

كلها من فيض فضل الله تعالى من حيث لايحتسب، واشترى لها أوقافاً ، وأقام لها الشعائر، ولم يشاركه أحد فى ذلك الأمر (لامن طلبة الشيخ ولامن طلبته من)[١] .

كان من طلبته وتحت تربيته ، فكل الأماكن المنسوبة لسيدى عبد القادر عمارة سيدى الشيخ جلال الدين ، لأنها من كسبه واجتهاده ، وكان الشيخ عبد القادر غارقاً فيما هو فيه من الجذب لايفيق إلا قليلا ، فالاسم له ، والمعنى الشيخ جلال الدين .

وسمعته رضى الله عنه يقول مرة الشيخ جلال الدين : إياك أن تدخل فى المقام أحداً من أبناء الدنيا، واجعل جميع وظائفه وخبزه الفقراء والمساكين ومتمشقى[٢] الركب والواردين . فامتثل الشيخ جلال الدين ذلك ، وسار فى المقام سيرة عظيمة .

وكان رضى الله عنه يكرم كل وارد عليه من أمير أو فقير ، أو غنى أو صغير ، ويقدم لكل واحد مايناسبه . وكان كثير الأدب والحياء ، كريم النفس ، جميل المعاشرة ، حلو الكلام ، وكأن الله عجن طينة جسده من سائر المحاسن . وكان يتفقد كل من نام عنده فى المقام ، ويسأل عن القيام بواجب حقه وإكرامه . وبات عنده جماعة واشتروا عشاءهم ، فتكدر لذلك غاية التكدر وكان على وظيفة العرب فى الكرم والنخوة والمروءة .

وكان كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم ، وكانوا يهابونه ويجلونه ، وكان مهيب المنظر ، عليه خفر العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ، كثير الصيام والقيام ، زاهداً ورعاً حنيفاً متقشفاً فى ملبسه ومأكله ، لايدخر شيئاً من الدنيا ، ولايبيت على دينار ولا درهم ، يكسو الفقراء والمساكين ، ويتفقد الأيتام والأرامل ، وكثيراً مايغرف للماجور[٣] من الطعام ويضعه على باب

(١) مابين الحاصرين سقط من ا ، (٢) فى ا : متمشقين .
(٣) إناء من الفخار يستعمل للعجن فى الريف .

الزاوية بعد المغرب ، فكل من رآه ذاهباً إلى السوق يشترى عشاءه يقول له : تعال . فيغرف له ما يكفيه ويكفى عياله ، ويقول له : توسّع بما كنت عازماً على شراء عشائك به .

وأوصافه الحسنة تجل عن تأليفى ، فأسأل الله أن ينفعنا ببركة أسلافه الطاهرين الكرام العظام آمين . مات رضى الله عنه ودفن بالقبة الكبيرة التى فى الجامع الأبيض ، وكانت جنازته مشهودة .

ورأيته بعد موته بشهور وهو فى نعشه طائر فى الهواء حتى جاء إلى مقام سيدى عبد القادر فدخل فى شباك القبة ، فقلت له : ياسيدى ما لك انتقلت . فقال : إن الفسقية التى أنا فيها يدخلها الماء من بركة القرع . فقلت ذلك لولده الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه ، فقال : لعل منامك صحيحاً . ثم فتح الفسقية فوجد الشيخ عائماً بكفنه . فعمل للشيخ دكة خشب ووضعه عليها . رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين الدمياطى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين الدمياطى ، المقيم بخانقاه سعيد السعداء . كان محققاً للعلوم ، كثير البكاء من خشية الله تعالى ، زاهداً ورعاً عابداً ، لايكاد ينام من الليل إلا قليلا .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبى شريف والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ عبد الحق السنباطى . وأخذ التصوف عن سيدى محمد المنبولى ، وعن الشيخ نور الدين الحسنى . وكان سمته سمت الصالحين وأعماله أعمال المتقين ، وكان يعيب على الفقهاء الذين يتوسوسون فى ماء الطهارة ولايتوسوسون فى اللقمة[1] ، ويقول لهم : « لو عكستم الأمر لأفلحتم » .

(١) أى فى تحرى الحلال الخالص من العيش .

صحبته نحو خمس سنين ، ثم مات ، وكانت جنازته مشهودة ، وكان عازباً لم يتزوج قط ، وكان يطبخ بنفسه ، ويفرق على جيرانه ، ويطعم طلبته ويقول : ما أحوجنى الله إلى النساء ، كابدت العزوبة سنة ، ثم ذهبت عنى شهوة الوطء .

وكان كثير الذكر لله تعالى ، لا يكاد يغفل عن قول : الله ، الله ، الله ، فى حال درسه ، وفى حال عمله الشغل ، ويأمر رفقاءه[1] بكتمان ذلك ، فلم يظهر الأمر إلا بعد موته . رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شهاب الدين الحسامى

ومنهم الشيخ الإمام الفقيه الصوفى النحوى الشيخ شهاب الدين الحسامى رضى الله عنه . صحبته نحو عشر سنين ، فما رأيت وقتاً دخل عليه وهو محدث ، وكان دائم الطهارة ، كثير الصمت والحياء والأدب ، يمكث اليومين وأكثر لا يتكلم كلمة لغو ، وكان زاهداً ورعاً كثير الصيام طويل القيام، يقوم للتهجد من أول النصف الثانى من الليل، وكان نهاره فى طاعة (الله)[2] ، إما فى علم أو قراءة قرآن أو قراءة أوراده يقول من عاشره : ماضبطنا عليه ساعة قط هو فيها غافل عن مصالح دنياه أو أخراه . وكان لا يأكل شيئاً من صدقات الناس ، ولا يقبل هدية من الولاة والقضاة والمباشرين والتجار الذين لا يتورعون فى كسبهم .

أخذ طريق التصوف عن جماعة منهم الشيخ على المرصفى رضى الله عنه ، وكان يذهب إلى مجلسه كل جمعة ، وكان رجلا مهيب المنظر ، يتعمم بالقطن من غير قصارة[3] ، وثيابه قصيرة على السنة المحمدية ، وكان يخدم نفسه ، ويشترى حوائجه من السوق بنفسه ، ولا يمكن أحداً يحملها معه ، وكان العلماء يرجعون

---

(١) فى ا : ويأمرهم (٢) سقطت من ا

(٣) أى من غير تبييض .

إليه فى المعقولات ، ويمدلونه بابن هشام وابن مالك ، رضى الله تعالى عنهم .

مات رضى الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، رحمه الله تعالى .

الشيخ عبد الخالق الميقاتى

ومنهم الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ عبد الخالق الميقاتى ، رضى الله عنه صحبته نحو خمس عشرة سنة . وكان عالماً فى مذهب الإمام أبى حنيفة ، وله الباع الطويل فى علم المعقولات وعلم الهيئة وعلم التصوف ، وكان وقته كله معموراً بذكر الله وغيره من الصالحات .

وكان كريم النفس ، لا ينقطع عنه الواردون فى ليلة من الليالى . وكان الفقراء [يحضرونه] ليلة الجمعة ، يتذاكرون عنده فى أحوال الطريق إلى الصباح ، وله سماط من أول من شهر رمضان إلى آخره .

وكان دائم الصمت لا يتكلم إلا لضرورة ، يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . وكان رضى الله عنه على طريقة الفقراء الأقدمين ، لا يعجبه أحد من فقراء الزمان وعلمائه ، و [يقول] : لا ينبغى لأحد أن يتظاهر بطريق القوم(١) إلا إن صدق فى طريقهم . وكان يكره لبس الزى ويقول : ليست الطريق بمثل ذلك ، وإنما كان السلف يلبسون الصوف والمرقعات لقلة الحلال المناسب لمقامهم ثم يقول : وماذا يغنى لبس مئزر الصوف والجبة ، وصاحبها ينام الليل ، ويفطر النهار ، ولو أنه عكس الأمر لكان خيراً له .
مات رضى الله عنه ودفن قريباً من جامع(٢) الملك . وكانت جنازته مشهودة .

---

(١) فى ا : يظاهر من القوم (٢) فى ا : بجامع

الشيخ شمس الدين الجزيرى

ومنهم الشيخ العابد الصالح ، السالم الزاهد ، الشيخ شمس الدين الجزيرى الغمرى الشافعى رضى الله تعالى عنه . كان على قـدم عظيم فى حفظ اللسان والجوارح ، لايكاد كاتب الشمال يجد شيئاً يكتبه عليه الجمة وأكثر ، وكان وقته كله معموراً بالعلم والعمل والأوراد ، وما سمعته قط يذكر أحداً بسوء ، ولا يأكل لأحد من غير المتورعين فى مكاسبهم طعاماً .

وكان يحسب ماله ويخرج زكاته على التمام والكمال ، وكان كثير الصدقة سراً ، ويتفقد جيرانه بالطعام كل ليلة ، وكان حلو اللسان ، كثير الحياء ، كثير الأدب ، كثير الحلم والعلم . وبالجملة أوصافه الجميلة كثيرة . رضى الله تعالى عنه .

الشيخ نور الدين بن ناصر

ومنهم شيخنا العلامة حافظ العصر الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعى ، رضى الله عنه ، كان يحفظ نصوص الشافعى وأقوال مقلديه عن ظهر قلب ، لايحتاج إلى نظر فى كراس . وكان حسن المعاشرة [دائم] التبسم[1] ، لاتكاد تجده إلا متبسماً ، وكان النور يخفق على وجهه يدركه كل المؤمنين ، وكان محفوظه أكثر من الروضة[2] . وكان فى تدريسه كالبحر المدار .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ عبد الخالق السنباطى ، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى . وكتب على مؤلفاتى أحسن كتابة ، ومات سنة نيف وعشرين وتسعمائة رضى الله عنه .

---

(١) فى ا : المعاشرة والتبسم .

(٢) الروضة : كتاب فى فقه الشافعية شرح شيخ الإسلام الأنصارى .

الشيخ على الشافعى

ومنهم شيخنا العالم العلامة الشيخ على الشافعى رضى الله تعالى عنه . كان يجيب عن المسائل التى يسأل عنها ، وكان قل أن يكشف [فى كراسة] ، لأن مذهب الشافعى كان نصب عينيه ، ومكث يفتى الناس أكثر من خمسين سنة كما أخبرنى بذلك فى مرض موته .

وكان ورعاً زاهداً قليل الكلام ، وربما يمكث اليوم كاملا لايتكلم بكلمة لغو ، وكان يشهد فى الصالحين ولايقفى ، وسألوه أن يكون قاضياً فأبى ، وكان بيته خالياً من أمتعة الدنيا ، لا تكاد تجد فيه غير الإبريق ، وتختاً[1] خلقاً مفروشاً تحته . وكان ملبسه إذا دخل بيته هُدَيْمات ، وعمامته شراميط .

ودخلت عليه فى مرض موته فقال : ياولدى ، خير الناس من خرج من الدنيا ولم يأخذ من أجر عمله شيئاً ، لى خمسين سنة أفتى فى هذه البلدة ، ومع ذلك لم يتفقدنى أحد فى هذه الضفة برغيف واحد ، ولا بجديد[2] ، ولا بقطعة سكر ، فالحمد لله رب العالمين .

مات قريباً من عشرين وتسعمائة ، رضى الله عنه .

الشيخ شهاب الدين القسطلانى

ومنهم شيخنا الصالح الشيخ شهاب الدين القسطلانى . كان عالماً صالحاً محدثاً قارئاً ، وكان من أهل الإنصاف . كل من رد عليه غلطاً أو سهواً يزيد فيه محبة وتعظيما . ولما طالعت شرحه البخارى سألنى بالله أن أنبهه على كل موضع وقفت فيه . ولما وضع شيخ الإسلام زكريا الأنصارى شرحاً البخارى أخبرته بذلك ، فسألنى أن أحضر معه لشرحه ، فكل شىء عدل عنه الشيخ

---

(١) التخت : الفراش (٢) أى بثوب جديد .

زكريا من عبارته أكتبه له ، فكنت أجمع له فى كل جمعة عدة أوراق ، تارة يأتى فيأخذها ، وتارة يرسل عبده فأعطيها [له] .

وكان رضى الله عنه من أزهد الناس فى الدنيا ، وأحسنهم وجهاً ، طويل القامة ، حسن الشيب ، يقرأ القرآن بأربعة عشر رواية ، وكان صوته بالقرآن يبكى الناس ، وكان يقرأ فى المحراب[1] فيتساقط الناس من الخشوع والبكاء .

وأقام عند النبى ﷺ سنين ، فحصل له جذب ، فصنف له كتاب «المواهب اللدنية »[2] لما صحا ، وأوقف خصياً على خدمة الحجرة النبوية .

مات رضى الله عنه فى شهر ربيع الأول قريباً من العشرين وتسعمائة هجرية ودفن فى المدرسة العينية ، قريباً من الجامع الأزهر ، رحمه الله تعالى .

الشيخ شهاب الدين السمنودى

ومنهم شيخنا الإمام المحدث الخطيب بالجامع الأزهر ، الشيخ شهاب الدين السمنودى الشافعى رضى الله تعالى عنه ، كان عالماً ورعاً زاهداً ، لم يأكل من معلوم وظائفه الدينية ، وإنما كان ينفقه على العيال . ومرض مرة فلم يستنب فى الحضور ، فرد معلوم ذلك الشهر حين أتوه به .

وكان رضى الله عنه يقول : جهدت أن آكل من معلوم فلم يتيسر لى ، إنما آكل من حيث لا أحتسب[3] .

وانتهت إليه الرئاسة فى الفتوى مدة طويلة ، ثم انتقل إلى المحلة الكبرى فأقام بجامع السد ، فلم يزل يفتى ويدرس فى العلم بها إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وتسعمائة ، ودفن بمقبرة الشيخ الطريني .

---

(١) فى ا ، ب : وكان فى قراءة المحراب .
(٢) الكتاب مطبوع ، وشرحه الزرقانى فى ثمانى مجلدات .
(٣) فى الأصول : لم أحتسب .

وكان لا يفتى أبداً فى الطلاق ويقول : إنهم يتهاونون فى مسائل الطلاق خلاف الواقع ، فيعملون بفتياى بالباطل ، رضى الله عنه .

الشيخ شمس الدين الغزى

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة المفتى فى [العلوم] الشرعية والعقلية الشيخ شمس الدين الغزى ، جعله السلطان الغورى إماماً فى مدرسته بغير سؤال منه ، وقدمه على سائر علماء البلد الذين سألوا .

وكان مهاباً لا يكاد أحد أن ينظر إليه إلا ارتعد من هيبته ، وكانوا يحذرون الصبيان الذين يعرضون عليه محفوظاتهم ويقولون : لا تنظروا إلى وجه الشيخ تذهلون عن حفظكم من هيبته . وكان رضى الله عنه فى المحراب غريباً ، لا يكاد المقتدون يملون من سماعه ولو قرأ بنحو حزب قرآن .

وكان رضى الله عنه يفتى ويدرس طول النهار على طهارة كاملة ، ولم يضبطوا عليه غيبة فى أحد من أقرانه ولا غيرهم ، سمعته مرة يقول : جميع أعمال العبد إذا قبلها الله تعالى يوم القيامة ربما لا يرضى بها .

الشيخ جمال الدين الصافى

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة المحقق الشيخ جمال الدين الصافى الشافعى ، المدرس والمفتى بالجامع الأزهر رضى الله عنه . كان لم يزل يفتى ويدرس بالجامع الأزهر إلى أن مات رحمه الله تعالى . وتخرج عليه جماعة كثيرة ، وهو من أجلاء طلبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا رضى الله عنه .

وكان رضى الله عنه قوالاً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يواجه بذلك الملوك فمن دونهم ، حتى أداه ذلك إلى الحبس والضيق وهو مصمم على الحق ، رضى الله تعالى عنه .

الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث الفقيه المقرىء الأصولى النحوى الصوفى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى بالقاهرة رضى الله تعالى عنه .

كان زاهداً كريماً ورعاً ، واسطة خير الناس فى قضاء الحوائج ، وكان يتفقد الأرامل والمساكين بالبر والإكرام ، وكان لايدخل أحد مصر من الأولياء والعلماء إلا ورد عليه ويكرمه ويجله ، كسيدى محمد بن عنان ، وسيدى محمد المنير ، وسيدى محمد بن داود ، وسيدى أبو بكر الحديدى ، وسيدى محمد الشناوى وسيدى عبد الحليم بن مصلح ، وسيدى على بن الجمال وأضرابهم . وهو أول من أخذت عليه الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والسند وكتب الحديث .

وكان رضى الله عنه كثير العبادة والكشف والكرامات والاعتقاد التام من الخاص والعام ، وكان وقته محفوظاً من تضييعه فيما لايعنيه ، لا تكاد تجده قط فى ليل ولا نهار إلا فى طاعة الله .

ومما رأيته له من الكرامات أنى كنت أقرأ عليه فى شرح البخارى القسطلانى ، باب جزاء الصيد ، فمررت [بقوله] : وفى التيتل عنز ، فقلت له : ماصفة التيتل؟ فقال: إن شاء الله تراه فى هذا الوقت . فما مضى درجة إلا والتيتل خارج من حائط ، حتى وضع فمه على كتفى ، فرأيته ، ثم خرج التيتل من باب جامع الغمرى والناس ينتظرون الصلاة . فلما انقضت الصلاة قلت للجماعة كانوا هناك : أرأيتم التيتل الذى خرج من المحراب ؟ فأنكروا ذلك وضحكوا ، فقصصت عليهم القصة مع الشيخ . فقالوا : هذه كرامة له .

وكان يقرأ بالسبع فى المحراب بصوت ماسمع السامعون بمصر مثله .

ولما ورد عليه أخو السلطان سليم إلى مصر طلبوا له إماماً يأتم به ، فاتفق أهل مصر على الشيخ أمين الدين ، فشاوروا السلطان الغورى عليه فأجازه بذلك ،

إلى أن رجع إلى الروم ، وسمع قراءته فى صلاة الصبح نصرانى من مباشرى القلعة فأسلم ، ورضى قلبه بالإسلام من حسن صوت الشيخ ، ورأيته يصلى خلفه إلى أن مات .

وكان الشيخ أبو العباس الغمرى يقول : جامعنا هذا جنة ، وروحه الشيخ أمين الدين ، ومكث الشيخ إماماً فيه سبعاً وخمسين سنة ماضبطوا عليه أن الوقت دخل وهو على غير طهر ، وما ضبطوا عليه أنه نام عن قيام الليل فى صيف ، ولا شتاء .

ورأيت جماعة من الخراطين بالقرب من الجامع الأزهر يأتون وقت الصبح يصلون خلفه ، وكان يقرأ بالأنغام المختلفة فى الصلاة لا يتكلفها . وكان جماعة السلطان الغورى الذين ينشدون عنده يأتون إليه فيتعلمون ، وكان إذا مرض يتكلف الوضوء ، فرأيته ليلة توفى يزحف إلى ميضأة الجامع وتوضأ ، فغلب عليه المرض فوقع فى الميضأة بثيابه وعمامته ، فطلع وثيابه تقطر ماء فأحرم بالناس صلاة المغرب ، وصلى بهم كذلك ولم يترك صلاة المغرب ، ثم مات بعد صلاة العشاء تلك الليلة ، رضى الله تعالى عنه .

وكان ملبسه الثياب الزرق ، والعمامة القطن من غير قصارة ، وله هيبة تؤثر فى القلوب ، ومع ذلك فى غاية التواضع مع الصبيان والأرامل والمساكين ويقضى حاجتهم من السوق ، ويحمل الخبز على رأسه من الفرن ، ولا يمكن أحداً [أن] يحمل ذلك عنه . وكان كل من رآه من الأكابر وهو حامل الطبق ينزل من على فرسه ويقبل يده ، ويسايره ، ولا يقدر على الركوب حتى يفارقه الشيخ . وكان يجمع الزكاة ويفرقها على المحاويج ، حتى كان يرسل لأهل صريرات إلى بلاد الريف ، ولم يأكل منها شيئاً ، وكان إذا مقت إنساناً لا يفلح بعدها أبداً . مقت نحو سبعة عشر نفساً قرأوا فى أنفسهم العبر ، ولم يفلحوا لافى أعمال الدنيا ولا فى أعمال الآخرة .

وكان كل يوم يفت الخبز اليابس ويسقيه بالشربة ، ويجمع العميان والأيتام ويتغذى معهم ولا يأ كل وحـده إلا لضرورة . وكان إذا قل المرق عن تسقية الخبز يصب عليه من الإبريق ماء ، ويأ كله ، ومناقبه رضى الله عنه كثيرة مشهورة .

مات رضى الله عنه فى ذى القعدة الحرام سنة تسع وعشرين وتسعمائة ودفن بتربته خارج باب النصر رضى الله عنـه ، ورأيته بعـد موته روى لى حديثاً بالسريانيـة ، ففهمت معناه ، وهو قوله : روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « من واظب على النوم بعد صـلاة الصبح ابتلاه الله تعالى بوجع الجنب » ، وكان بى وجع الجنب قبل ذلك ، وما كنت أعرف سببه ، فتركت النوم بعد الصبح ، فزال عنى الوجع مع أنى ما كنت أنام بعد صلاة الصبح إلا يوم الجمعة لـكونها ليلة سهر من العشاء إلى الفجر .

ورأيته مرة أخرى ثانى ليلة من دفنه ، وجبهته تقطر دماً حـتى ظهر لونه من الـكفن ، فقلت ذلك لولد ابنة الشيخ سيدى « أبو اللطف » فقال : رؤياك صحيحة ، فإنا لما أنزلناه القبر صدم جبهته حجر فخرج منه الدم رضى الله تعالى عنه وإلى وقتى هذا ما كنت فى شدة إلا ورأيته فى منامى وحصل لى الفرج ، والحمد لله رب العالمين .

الشيخ نور الدين السمهودى

ومنهم العلامة الشيخ الصالح نور الدين السمهودى الضرير ، الإمام بالجامع الأقمر رضى الله عنه قرأت عليه كتباً فى النحو والفقه والحديث . وكان الخلائق مقبلين عليه ، لاتقوم طائفة إلا وتدخل عليه أخرى ، حـتى أن بعضهم أ كل درسه على السراج .

وألف عـدة كتب فى القراءات وفى النحو ، ونظم الأجرومية على روى

الشاطبية وشرحها . ورأيته مرات يأكل والناس يقرءون عليـه ، لايجد وقتاً خالياً للأكل لـكثرة اشتغال الناس عليه .

وكان له فروة كبش مغشاة بثوب طرح يلبسها صيفاً وشتاء وكانت عمامته من غليظ الحلاوى ، يغسلها مرة فى السنة .

وكنت إذا دخلت عليه فى بيته تذكرت أحوال السلف ، ليس فيه طرقة ، ولا صندوق، ولا شىء من أمتعة الدنيا ، وكان كثير الصمت والخشية لله تعالى ، ولا تزال عيناه تهملان الدموع .

وكان رضى الله عنه يقول : مابقى للفقيه فى هذا الزمان أحسن من الوحدة ، وعدم التردد للناس ، ومادام الناس عنه غافلون فهو بخير والفتنة كلها فى الشهرة وكان يديم التدفى بالنار فى الشتاء حتى صارت أوراكه مسودة من ذلك ، وطلبوا شيئاً يدفئه فقال : مالى وللدنيا ومابقى إلا القليل ونقدم على الله تعالى ، وننسى كل مُؤَثّر فى الدنيا .

مات رضى الله عنه سنة ثلاث وتسعمائة رضى الله عنه .

الشيخ ملا على العجمى

ومنهم الشيخ الصالح العلامة المفتى فى العلوم العلامة الشيخ ملا على العجمى الذى كان مقيما بتربة نائب جده خارج باب القرافة ، رضى الله عنه ، كان إماماً فى الفقـه ، والتفسير ، والمعقولات ، والتصوف . قرأت عليه عـدة كتب ، وانتفعت بصحبته .

وكان كثير الأدب والحياء ، كثير الصمت ، لايكاد يتكلم كلمة واحدة إلا إن كلمه أحد ، وكنت أشبهه بسيدى على المرصفى رضى الله عنه فى الهيبة والوقار وكان حسن الاعتقاد تابعاً هدى أهل السنة والجماعة ، محباً لجميع الصحابة ، عابداً

ناسكا خاشعاً خائفاً ، مجلسه كله مجلس علم وأدب وحياء ووقار ، ويجيب على الأئمة المخالفين لإمام مذهبه بأحسن جواب .

مات رضى الله عنه فى محل إقامته خارج القرافة ، وكانت جنازته مشهودة. رضى الله عنه .

الشيخ بدر الدين المشهدى

ومنهم الشيخ العلامة المحدث الفقيه الصوفى الشيخ بدر الدين المشهدى رضى الله عنه ، كان عالماً صالحاً كثير العبادة ، من صيام وقيام وكف لسان ، محباً للخمول وعدم نشر الصيت إذا رآى أحداً يقرأ عليه فتح له ، وإلا أغلق باب داره ، فقلت له يوماً : ماأصبرك على الوحدة ياسيدى ! فقال : من كان مجالساً لله تعالى فما ثم وحده ، وقد جاوزت الأربعين سنة ومابقى يناسبنا إلا الجد والاجتهاد وعدم الغفلة عن الله تعالى ، ثم قال لى : هكذا أدركنا الأشياخ خلاف ماعليه أهل هذا الزمان ، فيعلم أحدهم بعض مسائل ، فيودون لو عرف بها جميع أهل الأرض .

ثم قال لى : ياولدى والله إنى الآن فى غم شديد لفقد تلك الأشياخ . كانت رؤيتهم عبادة[1] ، وكان رضى الله عنه يقول : مدح الناس العبد قبل مجاوزة الصراط كله غرور فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الشيخ نور الدين المحلى

ومنهم الشيخ العالم العلامة محقق الديار المصرية الشيخ نور الدين المحلى. الشافعى رضى الله تعالى عنه ، كان كالجبل الراسى فى كمال العقل والهيبة والوقار ، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف ، وكان مشهوراً فى مصر بحل مشكلات

---

(١) لأن رؤيتهم تذكر الإنسان بالله ، وترده إليه ، فمن ثم كانت عبادة .

العبادات فى الأصول والفقه والمعانى والبيان وغير ذلك . وتفقه عليه خلائق لايحصون . منهم الشيخ شهاب الدين عميرة ، والشيخ عبد الحميد السمهودى رضى الله عنهما .

لم يزل على نعت الاستقامة من الزهد فى الدنيا والاعتقاد الحسن فى طائفة الصوفية ، عكس ما كان عليه شيخه الشيخ برهان الدين البقاعى ، وأخبرنى مرة شيخه فقال لى : ياولدى ، إنما أنكر على هؤلاء القوم خوفاً على الناس أن تتلف عقائدهم بعدم سلوكهم الطريق، وتعذر معرفة كل [أحد] باصطلاحهم فى ألفاظهم ، فرأيت التنفير عن كلامهم أحسن للناس وأصلح ، وإلا فأنا بحمد الله معتقد فى الشيخ محيى الدين بن عربى وسيدى عمر بن الفارض ، وبتقدير عدم الاعتقاد فيهما ، فإنما أنكرت على العبارة التى نسبت إليهما[1] ، وقد لايكون ذلك كلامهما ، وقد دس للملاحدة شيئاً كثيراً فى كلام الأئمة بغير علمهم .

ولما وقعت المحنة أمام السلطان الغورى فى أمر الرجل الذى اعترف بالزنا ثم اختلف القضاة الأربعة ، أرسل يسأله أن يتولى قاضى القضاة فى مذهب الإمام الشافعى بغير سؤال ، عبس فى وجه قاصد السلطان وقال : قل للسلطان : إن كان على المحلى ضيق عليك فهو يرحل عنك إلى بلاد التكرور ، ولم يجب السلطان إلى ذلك رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شهاب الدين المسيرى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الزاهد الصالح الشيخ شهاب الدين المسيرى الشافعى رضى الله عنه ، كان جبلا راسخاً فى العلوم الشرعية والعقلية ، وهو مع ذلك لاينفل عن قضاء حوائج الناس عند الأمراء والأكابر ، وكانوا كلهم منقادين له

---

(١) وهى بالطبع العبارات الموهمة للحلول . انظر آراء العلماء فى هذه العبارات فى مقدمة كتاب العبادة للشيخ الأكبر نشر مكتبة القاهرة بالأزهر .

نفقته وزهده فيما بأيديهم ، فكم أطعم جائعاً ، وكم كسى عرياناً ، وكم وزن مهر فقير ، وكم أوفى ديناً .

كان كثيراً ماياًتيه الفقير يسأله الشفاعة وهو يدرس ، فيترك الدرس ويقوم معه ويقول : هـذه ضرورة ناجزة ، وضرورة الحاجة إلى هـذا العلم متراخية ، وقلما يحتاج أحد إلى تلك المسائل التى نبحث فيها .

وكان رضى الله عنه قواماً بالليل صواماً بالنهار ، رث الهيئة فى الثياب ، مع الهيبة والوقار ، صغير العمامة على قبع[1] جوخ ، لاتكاد تجده ليلا ولا نهاراً إلا مشغولا فى مصالح غيره حتى [صار] سداه ولحمته خيراً رضى الله عنه .

الشيخ أبو النجا الفوى

ومنهم الشيخ الإمام الفقيه المحدث الصوفى المتفنن فى سائر العلوم التى بأيدى الناس أبو النجا الفوى رضى الله تعالى عنه صحبته سبعة أيام . كان جبلاً راسخاً فى علم القراءات والحديث والتفسير . وكان رضى الله عنه فى آخر درسه فى الجامع الأزهر فسر من أول [سورة] الهمزة إلى آخر القرآن ، وتكلم فى ذلك المجلس على أربعة عشر علماً فى كل آية حتى بهر العقول . حضره جميع المدرسين بالجامع الأزهر ، وكان ذلك آخر مجالسه ، ثم سافر إلى بلاده فمات . وكان له القبول التام عند الخاص والعام ، وكان كثير الكرامات .

أخبرنى سبطه أن شخصاً عمل كعك العيد فقال الشيخ : تريد شيرجاً ، فأرسل فلاً شيرجاً من البحر الذى تحت بلده فى مدينة فوه إلى أن اكتفى وقال إنى لما غرفت من البحر نظرت إلى الإناء وهو يسيل من جوانبه .

وكان إذا بلغ أهل مصر أن الشيخ وصلت مركبه إلى ساحل بولاق

---

(١) القبع : القلنسوة

يذهبون إليه أفواجاً يتلقونه فرحاً به كيوم العيد . وفى ليلة موته شاع فى بلاده أنه القطب تلك الليلة ، فمكث فى القطبية دون الليلة ، فلذلك كان هجير أصحابه فى جنازته « هـذه جنازة عاشق ليلة وصاله » ولم يزالوا على ذلك حتى دفن رضى الله تعالى عنه .

وكان كثير الكشف ، لا يكاد يخطر على جليسه سؤال إلا قال له : الزم الأدب . فكان لايتجرأ على مجالسته إلا قليل من الناس .

قلت : وأخذ عنه خلائق طريق القوم . وكان إذا لقن إنساناً يصير يسمع نطق الموجودات كلها والجادات ، وكان لطيف المحاضرات ، لطيف المزاح ، يكاد إذا سمع صوتاً طيباً أن يذوب عشقاً ، وذلك من علامة القطب ، وله نظم شائع كثير . نظم الروضة فى الفقه ، ونظم المنهاج ، وشرح المغنى لابن هشام فى ست مجلدات . وأكثر مؤلفاته فى التصوف . وله موشحات غريبة منها :

أيهـا القـاموس يطلـع كالقـادوس
مـلا وانذق روس دخـان المشغـل
ودقات الطبول وافصل لا تفعل تحير فيها العقول
ما أسـرع مايـنزل واخرج عن ذلك ياحزين .
سطر مافاتك على طول السنين

ياعبد القـدوس نقـد وعبوس
محمـد للإنوس والسكين تدوس

إلى آخر ماقال . ومناقبه كثيرة مشهورة بقوة . رضى الله تعالى عنه :

الشيخ نور الدين الجارحى

ومنهم الإمام العالم العلامة المقرى المحدث الفقيه النحوى الشيخ نور الدين ،

الجارحى رضى الله تعالى عنه . كان قليل الضحك ، مهيب المنظر ، كثير الصمت قليل المخالطة للناس ، ليله ونهاره فى طاعة ربه ، وكان قد انفرد فى مصر بعلم القراءات هو والشيخ نور الدين السمهودى . وكان يقرىء الأطفال تجاه جامع الغمرى . وكان إذا نظر إلى الطفل يرعد من هيبته . وكان مذهب الإمام الشافعى كله نصب عينيه ، وما دخل عليه وقت إلا وهو على طهارة ، رضى الله عنه .

الشيخ شهاب الدين بن عبد الكافى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة القاضى شمس الدين بن عبد الكافى . كان يقضى فى مجلسه خارج باب القدس ، والناس يقرءون عليه العلم ، وكان لا يأخذ على القضاء أجراً وكان طويلاً سميناً ، ومحاشمه قدر بطيختين كبيرتين ، ومع ذلك كان يتوضأ لكل صلاة من الخمس . وكانت محاشمه دائماً مشدودة بفوطة مربوطة فى وسطه حتى يقدر على الاستنجاء . وكنت أستدل على دينه وكثرة تقواه بذلك ، فإنى رأيت من كان بحاله ترك الصلاة والاستنجاء فى غالب أوقاته . رضى الله تعالى عنه .

وما سمعته مدة قراءتى عليه يذكر أحداً من أقرانه الذين يرون نفوسهم عليه إلا بخير ، وكان كثير الصمت ، كثير الصيام طلباً للهزال فيزيد سمنة ، وكان حلو المنطق ، جميل المعاشرة ، كريم النفس . رضى الله عنه .

الشيخ شهاب الدين الرملى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح ، خاتمة المحققين بمصر والحجاز والشام الشيخ شهاب الدين الرملى الشافعى الأنصارى رضى الله عنه ، وبلده صفهرة قريباً من البحر من منية العطار تجاه مسجد الخضر عليه السلام بالمنوفية .

كان رضى الله عنه ورعاً زاهداً عالماً صالحاً حسن الاعتقاد الخلق ، لاسيما طائفة الصوفية ، يجيب عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، ويذكر عنهم المستظرفات من الحكايات . انتهت إليه الرياسة فى العلوم الشرعية ، وعاش حتى صار علماء الشافعية بمصر كلهم تلامذته ، فلا يوجد الآن عالم شافعى إلا وهو من طلبته ، أو طلبة طلبته . وأرسلت إليه الأسئلة من سائر الأقطار ، ووقف الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه . وكان يخدم نفسه ، ولا يمكن أحداً يشترى له حاجة من السوق إلى أن كبر وعجز .

وكان جميع علماء مصر حتى المجاذيب يعظمونه ويجلونه ، لاسيما الشيخ نور الدين المرصفى ، وسيدى على الخواص رضى الله تعالى عنهما . ورأيت مرة سيدى على الخواص رضى الله تعالى عنه وهو يقول : شكر الله فضلكم . فقلت له : ماسبب ذلك ؟ فقال : إنه سمع شخصاً من إخوانه يذكرنى بعد موتى بسوء فعاداه من أجلى . فقلت له : وهل يبلغكم مايفعله الناس بعد موتكم ؟ فقال : نعم[1] . فقلت ذلك للشيخ شهاب ، فقال لى : أمارته صحيحة ، وعلق لى ذلك الشخص .

ومن خصائصه أن شيخ الإسلام زكريا أذن له أن يصلح فى مؤلفاته فى حياته وبعد مماته ، ولم يأذن لأحد سواه فى ذلك . وأصلح عدة مواضع فى شرح البهجة وشرح الروضة فى حياة شيخ الإسلام ، وأنا حاضر لم أطالع له ، يقول من رآه : مارأيت مثله .

وشرح كتاب الزبد فى الفقه شرحا عظيما ، وكتبوه وقرأوه عليه . جمع فيه غالب ترجيحاته وتحريراته . وجمع الخطيب فتاويه فصارت مجلداً . وكان يقول:

---

(١) ليست الروح محصورة فى عالم من العوالم ، بل هى مطلقة ، ولاسيما أرواح الصالحين ، فلامانع مطلقاً من صحة هذا القول .

الشيخ نور الدين الطندتاوى محقق الدرس ، والشيخ شمس الدين الخطيب جامع للمسائل النوادر فى الدرس . وسمعت هذا القول منه مراراً .

وكان رضى الله عنه يحبنى أشد المحبة ، محبة السيد لعبده ، وحصل لى مرة مرض أشرفت فيه على الموت ، وجاءنى عائداً هو وولده سيدى محمد ، فصار الشيخ يدعو وولده يؤمن ، وأنا أشهد دعاء الشيخ صاعداً إلى السماء كالصواعق من شدة الهمة والعزم ، فما فارقنى حتى خلصت من ذلك المرض .

مات رضى الله عنه مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسعمائة ؛ وصلوا عليه يوم الجمعة فى جامع الأزهر . وما رأيت فى عمرى جنازة اجتمع فيها خلائق مثل جنازته ، وضاق الجامع من صلاة الناس فيه ذلك اليوم ، حتى أن بعضهم خرج وصلى فى غيره ، ثم رجع للجنازة قريباً من جامع الميدان ، خارج باب القنطرة ، وأظلمت مصر وقراها يوم موته ، لكونه كان سراجاً للعلماء ، فى تحرير نقول المذهب .

وإنما ختمنا هذا الباب به لتأخير وفاته عن ذكر قبله ، وإلا فهو أعلم فى اعتقادنا من جميع أقرانه . رضى الله تعالى عنه .

الفصل الثاني

في ذكر جماعة ممن أدركناهم وحظينا بصحبتهم ، من غير أن نقرأ عليهم شيئاً
من العلوم .. إما لاستغنائنا عن القراءة عليهم بالقراءة على مشايخهم ،
وإما لكونهم مخالفين لنا في المذهب ، لكننا كنا نراجعهم
في وقائع الأحوال رضي الله تعالى عنهم أجمعين

الشيخ جلال الدين بن القاسم

فنهم شيخ الإسلام العالم العامل ، الورع الزاهد ، الشيخ جلال الدين بن القاسم المالكي رضي الله تعالى عنه . صحبته سنتين ، وترددت عليه كثيراً ، وانتفعت بلحظه وحسن سمته . وكان كثير المراقبة لله تعالى في أحواله . وكانت أوقاته كلها معمورة بذكر الله عز وجل .

شرح المختصر والرسالة(1) ، وانتفع به خلائق لا يحصون . ولاه السلطان الغوري القضاء مكرهاً . وكان حسن الاعتقاد في طائفة القوم . ولما أنكر الشيخ محمد التكروري المالكي على سيدي عمر بن الفارض قال له : يا محمد ، مالك والسم تجربه في نفسك(2) . فلم يرجع عن إنكاره ، فما مضى ثلاثة أيام إلا وفر الناس من ذلك التكروري ، ولم يعد أحد يقرأ عليه علماً .

وكان يحفظ مدونة [مذهب] الإمام مالك وشرح مذهبه عن ظهر قلب ، وأقبل عليه أهل مصر إقبالا عظيماً قبل إنكاره ، ثم خرج إلى بلاده فقتل في الطريق .

---

(1) يعني مختصر خليل ورسالة أبي زيد القيرواني في فقه المالكية .

(2) لأن لحوم العلماء مسمومة كما يقولون . ما اغتابهم أحد إلا أصيب على الفور .

وكان الشيخ جلال الدين أكثر أيامه صائماً ، لا يفطر فى السنة إلا العيدين وأيام التشريق وكان حافظاً لسانه فى حق أقرانه ، لا يسمع أحداً يذكرهم إلا ويجلهم ويقول : نفعنا الله تعالى ببركتهم . رضى الله تعالى عنه .

الشيخ نور الدين الطرابلسى

ومنهم شيخ الإسلام المجمع على صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وضبط لسانه ، الشيخ نور الدين الطرابلسى . كان متفنناً فى العلوم ، وكتب لى على عدة من مؤلفاتى ، وزارنى كثيراً فى بيتى لما أنقطع عنه لعذر ، فكنت أكاد أذوب من الحياء منه .

وكان رضى الله عنه متواضعاً حسن الظن بالمسلمين ، وكان يؤذن فى شباك زاويته عند كل وقت من الخمس بصوت حسن وخشوع وتدبر أيام ولايته إلى أن مات . وكان لا يأكل قط من معلوم محكمته شيئاً مع أنه ولى كرهاً . وكان كثير الصدقة سراً وجهراً .

ولما عزله بعض قضاة العساكر لم يزل ملازماً بيتـه على النسك والعبادة والإفتاء . والتدريس إلى أن مات .

وأنكر عليه بعض قضاة الأروام لإفتائه بمذهبه الراجح عنده ، وكانبوا فيه السلطان فأمر بنفيه أو قتله ، فوصل المرسوم بعد موته ، بعد أن دفناه ؛ فكانت هذه كرامة رضى الله تعالى عنه .

ولما اشتدت المحنة عليه قبل موته بثلاثة أيام رأيت فى المنام لوحاً نزل من السماء فى سلسلة تجاه بيت الشيخ محب الدين بن الدهانة مكتوب فيـه : أيدنا الشيخ على الطرابلسى بالشيخ محب الدين بن الدهانة . فكان الأمر كذلك ، وحصل على يديه الفرج والسرور رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين الحنفى

ومنهم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ شمس الدين الحنفى السرسى رضى الله تعالى عنه . صحبته نحو عشرين سنة فما أظن كاتب الشمال كتب عليه فيها شيئاً ، وكان رضى الله عنه لا يكاد يسمع منه كلمة لغو .

وأخبرنى رضى الله تعالى عنه أنه صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة . وأخبرنى جماعة كانوا يقرءون عليه أن من كراماته أن الله يأخذ سمعه إذا كلمه أحد بغيبة أو كلام فاحش حتى كأنه أصم[1] . وهذا حفظ من الله العظيم ما سمعناه إلا من سيدى محمد بن زين بالنحارية رضى الله عنه .

وكان عالماً بالقراءات السبع . ولاه السلطان الغورى مشيخة الإسلام كرهاً عليه . وكان عامة ليله فى بكاء ومراقبة وتهجد إلى الصباح ، فيكحل عينيه ، ويدهن وجهه حتى كأنه بات ليله نائماً . وشرح كتاب المختار شرحاً عظيما ، وسافر إلى مكة المكرمة فمات بها رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين التتاوى

ومنهم الشيخ الإمام العلامة شمس الدين التتاوى المالكى رضى الله عنه المقيم فى المدرسة الشيخونية . شرح الرسالة شرحاً عظيما ، وشرح عدة كتب ، لم يزل على قدم الزهد والورع ومحبة الخمول[2] وعدم التردد على الأكابر إلى أن مات . وكان وقته كله معموراً بالعلم والعمل والأوراد ، ما زرته قط إلا ورأيته مشغولا بالله عز وجل .

---

(١) مثل ذلك حدث للحارث المحاسبى رضى الله عنه إذ كان فى يده عرق يضرب إذا قدم إليه طعام مشكوك فى حله .

(٢) يعنى عدم الشهرة .

وأخبرنى جماعة من الصوفية من جيرانه أنه لا ينام من الليل إلا قليلا على الدوام ، وكان كثير الصيام ، وكان لا يأكل لأحد من الظلمة وأعوانهم شيئاً . وأجمع الناس على جلالته وتحريره لنقول مذهبه ، وحفظ جوارحه الظاهرة والباطنة رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شهاب الدين بن الحلبى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الناسك الزاهد المجمع على جلالته الشيخ شهاب الدين بن الحلبى الحنفى رضى الله تعالى عنه . كان على جانب عظيم من الخشية والخوف من الله عز وجل ، وحلف لا يأتينى للزيارة إلا ماشياً ووفى بذلك إلى أن مات ،

وكان كثير الصدقة على الفقراء والمساكين ، لم يكن فى أقرانه أكثر صدقة منه ، وكان حسن الاعتقاد فى طائفة الفقراء والمجاذيب وأرباب الأحوال كثير الحيـاء والحلم والعفو والصفح ، لا يواجه أحداً بما يكره ولو فعـل معه ما فعل . ورأى مرة شخصاً يشتم آخر ، فوقف وقال : يا أخى تأدب مع الملكين الـكاتبين . أيسرك أن تلقى يوم القيـامة هـذه الألفاظ فى صحيفتك ؟ فاستغفر الشخص وقبل يد الشيخ .

وزرت أنا وإياه رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما وكان عنده شك أن الرأس هناك . فلما أخذ الشيخ فى التوجه إلى حضرة الإمام الحسين رآه مقطوع الرأس فقال : يا إمام ، أين رأسك ؟ فسمع الصوت من داخله يقول : إن رأسى فى مصر ، وعمر عليها طلائع بن رزيك مسجداً عظيما .

فأفاق من التوجه ، وأخبرنى بالقصة ، ثم ثقلت رأس الشيخ . فبينما هو

بين النائم واليقظان إذا رأى (الإمام)[1] . الحسين خرج من الضريح ، ودخل حائط القبة ، وصار يمشى ، ونظر الشيخ يتبعه إلى أن دخل الحجرة النبوية الشريفة فقال : يارسول الله ، إن أحمد بن الحلبي وعبد الوهاب الشعرانى يزوران رأس الحسين . فقال رسول الله ﷺ : تقبل الله منهما . ثم أفاق الشيخ فتواجد فوقعت عمامته وقال : قد تحققت أن رأس الإمام ههنا ، وما زال يزورها إلى أن مات رضى الله عنه[2] .

وكتب على عدة من مؤلفاتى أحسن كتابة ، ورأى فى كتابى «العهود» موضعاً لم يفهمه فأراد أن يصلحه فنام فسمع قائلا يقول له : إن أصلحت فى هذا الكتاب شيئاً سلبناك الإيمان ، فجاءنى بكرة النهار وهو يرعد ، وحكى لى القصة ، فقلت : مراد القائل : سلب إيمانك بصدق عبد الوهاب ، وهذا أمر لم يكلفك الله به ، فقال : فرجت عنى فرج الله تعالى عنك كرب يوم القيامة ، ثم قلت له : مرادى بهذا الكلام كذا وكذا . فكشف رأسه واستغفر وقال : أنا جاهل بمصطلح القوم .

وكان مرضه الذى مات فيه حصر البول ، فلم يزل إلى أن مات . وكانت جنازته حافلة بالأمراء والعلماء والتجار والقضاة ، حتى ما وجد أحد فى باب النصر مكاناً خالياً من الناس ، ودفن خارج باب النصر ، تجاه المدرسة الحاجبية ، وقبره ظاهر يزار ، رضى الله تعالى عنه ، ونفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سقطت من ا .

(٢) مثل هذه المشاهد فى حالة التوجه تكون قلبية قريبة من اليقين المحسوس أما فى حالة النهوانية الثانية فهى رؤيا فى عالم المثال تتوقف صحتها على صفاء القلب .

الشيخ شهاب الدين البرلسي

ومنهم الإمام العلامة المحقق الشيخ شهاب الدين البرلسي ، الملقب بعميرة الشافعي ، رضي الله عنه صحبته نحو عشرين سنة ، وكان عالماً زاهداً حسن الأخلاق والشيم ، له سمت حسن ، وانتهت إليه الرياسة في تحقيق المذهب ، ولم يزل يدرس ويفتي الناس حتى مرض مرض الموت ، وكان مرضه بالفالج ، فأقام به نحو سنة ثم مات .

أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطي ، ومنهم شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، ومنهم الشيخ نور الدين المحلي ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وكتب على مؤلفاتي أحسن كتابة ، رضي الله تعالى عنه .

الشيخ محمد الشامي

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد المتمسك بالسنة ، الشيخ محمد الشامي ، نزيل تربة البرقوقية ، رضي الله عنه . كان عالماً صالحاً متفنناً في العلوم ، وألف السيرة النبوية المشهورة التي جمعها من ألف كتاب ، وأقبل الناس على كتابتها ، ومشى على أنموذج لم يسبق إليه .

وكان عزباً لم يتزوج قط ، وكان رضي الله عنه إذا قدم عليه الضيف يعلق القدر ويطبخ له ، وكان حلو المنطق ، مهيب المنظر ، كثير الصيام والقيام ، بتّ عنده الليالي فما كنت أراه ينام في الليل إلا قليلا .

وكان إذا مات أحد من طلبة العلم وخلف أولاداً قاصرين وله وظائف ، يذهب إلى القاضي ، ويتقرر فيها ، ويباشرها ، ويعطي معلومها للأيتام حتى يصلحوا للمباشرة .

وكان لايقبل من مال الولاة وأعوانهم شيئاً ، ولا يأكل من طعامهم ، وذكر لى شخص من الذين يحضرون قراءة سيرته فى جامع الغمرى أن سأله فى اختصار السيرة ، وترك ألفاظ غريبها ، وأن يحكى السيرة على وجهها كما فعل ابن سيد الناس ، فرأيته فى بين القصرين ، وأخبرته الخبر ، فقال : شرعت فى اختصارها من مدة يومين ، فرأيت ذلك هو الوقت الذى سألنى فيه ذلك الرجل وكانت عمامته نحو سبعة أذرع على عرقية لم يزل غاضاً طرفه كما هو سواء كان ماشياً أو جالساً ، رضى الله عنه ، وأخلاقه الحسنة كثيرة مشهورة .

الشيخ عبد الرحمن الشامى

ومنهم الشيخ العالم الفقيه النحوى الصوفى الشيخ عبد الرحمن الشامى ، المدرس بخانقاه سعيد السعداء . كان يتعمم بالصوف ، وله كشف تام ، وتحقيق فى العلوم الشرعية ، وأقبلت الأمراء والأكابر عليه ، واعتقدوه اعتقاداً تاماً ، ورأيت مرة أمير كبير قد باس يديه وهو ماد رجليه .

الشيخ فخر الدين السنباطى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة فخر الدين السنباطى الشافعى رضى الله تعالى عنه .

كان عالماً صالحاً ورعاً عابداً زاهداً ، ولما ضربوا القانون على القضاة عزل نفسه من من القضاء . وكان يقضى فى بلاده قياماً بفرض الكفاية ، لايأخذ على ذلك عوضاً . فقلت له : يتعين عليك ذلك ، فرجع وطلب الولاية .

وكان يفصل بين الخصمين ويغديهما ويعشيهما ، ويعلف دوابهما ، وبت عنده ليالى فما رأيته ينام من الليل إلا قليلا ويبقى طول الليل قائماً يتهجد ويتلو القرآن ويبكى حتى يكاد يخر من البكاء ، وكان قليل الكلام حسن السمت ،

أخذ العلوم عن جماعة منهم : الشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ زكريا ، وصحب شيخنا الشيخ محمد الشناوى ، وانتفع به رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين الترجمان

ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل المرابط الشيخ شمس الدين الترجمان رضى الله تعالى عنه ، كان رفيقاً للشيخ فخر الدين السنباطى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، أفتى ببلاده ودرس وانتفع به خلائق كثيرة . وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، حتى أزال المنكرات ببلاده كلها ، وكان شيخاً شجاعاً رامياً لايكاد سهمه يخطىء ، وكان إذا جاء إلى مصر يزورنى تفضلا منه ، صحبته نحو عشر سنين ، إلى أن مات رحمه الله تعالى .

الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق

ومنهم الإمام العلامة العامل الورع الزاهد الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر الشيخ شهاب الدين بن الشيخ عبد الحق السنباطى ، الواعظ بجامع الأزهر رضى الله تعالى عنه .

لم يزل أحد من الوعاظ يقبل عليه الخلائق مثله . كان إذا نزل من فوق الكرسى يقتتل الناس عليه ، ومن لا يصل إليه يرى شَدَّةً حتى يلمس ثيابه[1] ثم يأخذه فيمسح به وجهه .

وكان متفنناً فى العلوم الشرعية ، وله الباع الطويل فى الخلاف العالى[2] ، ومعرفة مذاهب المجتهدين ، وكان من رءوس أهل السنة والجماعة ، ومن نسبه إلى ضد ذلك فقد افترى إثماً عظيماً .

---

(١) أى ثوباً أو عمامة أو نحوها .

(٢) أى الخلاف بين الأئمة الأوائل .

طالع كتابى « العهود »[1] من أوله إلى آخره ، وأعجب به ، ونقل منه على الكرسى عدة عهود وأنا أسمع ، ولما رمانى بعض من لايخشى الله تعالى ببعض بهتان انتصر لى من فوق الكرسى ثلاث مجالس حتى رجع ذلك المفترى عنى .

ولما مات رضى الله تعالى عنه أظلمت مصر لموته ، وانهدم ركن عظيم فى الدين ، وكان الشيخ قد اشتهر فى أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم وصاروا يضربون به المثل وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام ، عمل الحسدة له مكائد عند نواب مصر ، ونجاه الله تعالى منهم ، وهدم كذا كذا كنيسة ، وبيعة رضى الله تعالى عنه . ومارأيت فى عمرى أكثر خلقاً من جنازته إلا جنازة الشيخ شهاب الدين الرملى لكونهم صلوا عليه يوم الجمعة ، رضى الله تعالى عنه .

الشيخ أبو الحسن البكرى

ومنهم الشيخ الفقيه الصوفى المحدث ، نادرة الزمان الشيخ أبو الحسن البكرى رضى الله عنه ، أخذ العلوم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، والتصوف عن الشيخ رضى الدين الغزى ، وتبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث ، وغير ذلك .

وكان رضى الله تعالى عنه إذا تكلم فى علم منها كأنه بحر زاخر ، لايكاد السامع يتحصل من كلامه على شىء ينقله عنه لوسعه إلا إن كتبه فى قرطاس . وأخبرنى بلفظه ونحن بالمطاف أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق ، وقال : أنا أكتم ذلك عن الأقران خوفاً من الفتنة ، وسبب ذلك كما وقع للجلال السيوطى رحمه الله تعالى ، هذا لفظه .

---

(١) يظهر أنه يريد « البحر المورود فى المواثيق والعهود » لأنه هو الذى أحدث ضجة ، أما الأنوار القدسية فى العهود المحمدية فلم يحدث شيئاً .

وكانت مدة اشتغاله على الأشياخ مدة سنتين ، ثم جاءه الفتح من الله تعالى واشتغل بالتأليف ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات ، وهو أول من حج فى محفة ثم تبعه الناس ، وقد عاشرته من حين كان بلالحية ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل ترَبى فى نزاهة وعفة وطاعة وعزة نفس على أهل الدنيا ، لم يزل قط فى تحصيل معاشه لغيره ، بل كانت الدنيا تأتيه وهى راغمة ، وذلك كال على كال .

وحججت معه مرة فما رأيت أوسع أخلاقاً منه ، ولا أكثر صدقة فى السر والعلانية ، فكان لا يعطى أحداً شيئاً نهاراً إلا نادراً ، وأكثر صدقته ليلا ، وكان له الإقبال العظيم عند الخاص والعام فى مصر والحجاز وشاع ذكره فى أقطار الأرض كالشام والروم واليمن والتكرور والمغرب مع صغر سنه رضى الله تعالى عنه .

وكانت له كرامات كثيرة وخوارق وكشوفات فما قاله أو وعده لايخطىء وترجمة الناس بالقطبية العظمى ، ويدل على ذلك ماأخبرنى به الشيخ خليل الكشكاوى ، قال : رأيت الشيخ أبا الحسن البكرى رضى الله تعالى عنه وقد تطور فصار كعبة مكان الكعبة ، ولبس سترها كما يلبس الناس القميص .

وكان له النظم الشائع فى علم التوحيد ، وأطلعنى مرة على تائية عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله فى طريق القوم ، ثم غسلها وقال : إن أهل زماننا لايحتملون سماعها ، لقلة صدقهم فى طلب الطريق ، وأوصافه الحسنة تضيق عنها الدفاتر .

مات رضى الله عنه سنة نيف وخمسين وتسعمائة ، ودفن بجوار الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ، وكانت جنازته مشهورة ، وكان يحبنى كثيراً . وأخبرنى مرة بأنه يدعو لى فى سجوده ، ولما أشاع بعض الحسدة أنه يكرهنى

أرسل إلى ورقة بخطه يحلف فيها بالطلاق الثلاث من زوجته أنى عنده بمنزلة ولده سيدى محمد ، وهى عندى بخطه إلى الآن رحمه الله تعالى . آمين .

الشيخ شهاب الدين الفتوحى

ومنهم شيخ الإسلام العالم الصالح ذو الأخلاق الحسنة والأوصاف النفيسة بقية السلف الصالح ، الشيخ شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، رضى الله تعالى عنه .

كان من العلماء العاملين . ولاه السلطان الغورى القضاء كرهاً عليه ، بعد أن قال للسلطان مرات : أنا لا أصلح للقضاء ، وتولية مثلى لا تخلص ذمتك عند الله تعالى .

أقبل على العبادة آخر عمره ، وصار كأنه لم يشتغل بعلم قط ، مع [أنه] انتهت إليه الرئاسة فى تحقيق نقول مذهبه ، وفى علم السند فى الحديث ، وفى علم الطب والمعقولات ، رضى الله تعالى عنه .

وجاءه مرة شخص يريد أن يقرأ عليه شيئاً من المنطق ، فقال له : ياولدى قد صار الفقه ثقيلا على قلبى ، فما بالك بعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به . فقال : يامولانا ، إن العبادة عبادة . فقال : صحيح ، ولكن ما وجدنا فيه رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه ، وما أقل .

وكان الشيخ رضى الله تعالى عنه فى أول عمره يفكر على طريق الصوفية ويقول : هل لله تعالى طريق أخرى تقرب إليه غير العلم الذى بأيدينا ، فلما جمعه الله على سيدى على الخواص اعترف لأهل الطريق بالفضل ، وقال : هؤلاء القوم قطعوا مقامنا وتعدوا إلى ما وراءه ، وتأسف على عدم اجتماعه بالقوم ، رضى الله تعالى عنه .

ولما أرسلت إليه بكتاب الجواهر والدرر الذى التقطته من مجالس سيدى

على الخواص كتب عليه أحسن كتابة ، وقال لى بصريح لفظه : والله إنى طول عمرى أطالع فى كتب الشريعة ، فلم يخطر ببالى سؤال منه ولا جواب .

وأخبرنى أنه اشتكى الشيخ على مرة للمحتسب حين كان الشيخ زياتاً ، وضربه المحتسب وجرسه ، ثم صار يبكى ويقول : مثلى يشتكى أولياء الله تعالى؟ ولم يزل يزور قبر سيدى على الخواص إلى أن مات .

وقال لى مرة لما طالعت قول الشيخ على الخواص فى كتابه الجواهر والدرر : كل علم استفاده صاحبه من كلام غيره فليس بعلمه هو . ومن أراد أن يعلم مرتبته فى العلم الذى يبعث عليه يوم القيامة فليرد كل قول إلى قائله ، ويفظر بعد ذلك ، فما بقى معه فهو علمه الذى يبعث عليه . انتهى .

ولم يزل رضى الله عنه من حين جمعته على سيدى على الخواص يتردد إلىّ ويقول : لايجازيك عنى إلا الله تعالى ، فإنى كنت تائهاً عن طريق أولياء الله تعالى . وصار له كشف عظيم قبل موته ، وكاشفنى بما فى سرى مرات ، فعرفت حينئذ قول الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه : إذا لم يكن العلماء العاملون أولياء الله فليس لله ولى .

مات سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، وهو آخر مشايخ الإسلام من أولاد العرب انقراضاً ، فأسأل الله أن يجمعنا عليه فى الآخرة ليأخذ بيدنا فى تلك الشدائد .

الشيخ سراج الدين العبادى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة سراج الدين العبادى المقيم بالبرقوقية التى بالصحراء ، رضى الله تعالى عنه . صحبته أربعين سنة فرأيته على قدم عظيم فى العبادة والزهد والورع والعلم ، من الخشية وضبط اللسان وسائر الجوارح من المخالفات ، حتى لايكاد يتكلم إلا نادراً لضرورة شرعية . وكانت تقول مذهب

الشافعى نصب عينيه . وشرح قواعد الزركشى شرحاً عظيماً فى مجلدين ، وأتى فيه بتحقيقات ونكت وقواعد .

أخذ رضى الله عنه العلم عن الشيخ سراج الدين العبادى الكبير ، وعن الشيخ شمس الدين الجوجرى ، وعن شيخ الإسلام يحيى المناوى وغيرهم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس . وكان صاحب توجه عظيم كامل إلى رسول الله ﷺ ، وكان مجاب الدعوة فيمن يؤذى أحداً من المسلمين .

ولما حج وزار قبر رسول الله ﷺ طلب من الخدام أن يفتحوا له باب مقصورته ﷺ فأبوا ، فلما كان الليل توجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم وغالب الناس نيام ، فتفتحت الأقفال بنفسها ودخل وزار ثم خرج وعادت الأقفال إلى ما كانت عليه[1] .

توفى رضى الله تعالى عنه سنة نيف وأربعين وتسعمائة .

الشيخ شهاب الدين الصائغ

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الشيخ شهاب الدين الصائغ الحنفى ، رضى الله تعالى عنه . كان حسن الخلق والشيم ، مهيب المنظر ، قليل الكلام ، كثير العبادة فى الليل والنهار ، حلو اللسان ، كثير التواضع ، قليل التردد للأكابر .

وكان عالماً بالعلوم الشرعية والطبية ، فجمع طب الأبدان وطب الأديان ، ولم أر فى عصره من جمع بينهما سوى الشيخ شهاب الدين الفتوحى رضى الله عنه

أخذ العلوم عن الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وعن الشيخ تقى الدين الشمنى ، وعن الكافيجى ، وعن شيخ الإسلام الأمشاطى ، وأجازوه بالفتوى

(١) لا حرج ولا تحجير على فضل الله ، فهذا وغيره من باب خرق العادة الجائز مع الصدق .

والتدريس ، وحضرت درسه فى تفسير البيضاوى ، فأبدى من نكته العجائب .

وكان يصبر على جفاء السائل ، ويوجه السؤال ، وكان يحب الخمول ويقول أحب شىء إلىّ أن ينسانى الناس فلا يأتونى ولا آتيهم ، لقلة نفع الاجتماع الآن ، وما زاحم قط على شىء من وظائف العلماء ، وعرضوا عليه عدة وظائف فلم يقبلها ، رضى الله تعالى عنه إلى أن مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

الشيخ شمس الدين اللقانى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المجمع على جلالته الشيخ شمس الدين اللقانى المالكى رضى الله تعالى عنه ، كانت له مكاشفات عظيمة غريبة ، وكان كريماً سخياً حافظاً لنقول المذهب كأنها كلها نصب عينيه .

وكان يواجه الأكابر والأصاغر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لايخاف فى الله لومة لائم ، وكان لايبيت على درهم ولا دينار .

وأخبرنى من أثق به من طلبته أن شخصاً أعطاه سبعة عشر ديناراً ، وهو فى الدرس ، فقال : الهدية لمن حضر ، ففرقها على الطلبة ، فأصاب كل واحد ديناراً ، وفضل دينار ، فأرسل إلى السوق فاشترى به موزاً وحلوى وجمعهم عليه فأكلوا وانبسطوا ، وقال مباسطاً لهم : السلطان إذا لم ينفق على عسكره خرجوا عن طاعته ، وعصوا أمره ، ولو أن أهل العلم فعلوا كما فعلت لعكف عليهم الطلبة وحملوا عنهم العلم ، ونفعوا الناس وأنفسهم وشيخهم ، رضى الله تعالى عنه .

وكان رضى الله تعالى عنه حزين القلب ، كثير البكاء والخشية لله تعالى ، وكان رضى الله تعالى عنه إذا سمع أحداً يذكر شيئاً من أحوال يوم القيامة يمكث الأيام لاينتفع به أحد من أمر الدنيا .

وقرأ عليه مرة شخص شيئاً من تذكرة القرطبي وأحوال الموتى ، فمرض خمسين يوماً ، وكان رضى الله عنه كثيراً مايغلب عليه التعظيم لله عز وجل ، فيذهل عن نفسه ، وربما خرج من الجامع الأزهر ، فلا يهتدى إلى بيته فيأخذ الأطفال بيده فيوصلوه إلى بيته .

ومناقبه كثيرة مشهورة بين طلبته وغيرهم صحبته نحو ثلاثين سنة وانتفعت بلحظه ، فأسأل الله أن يحشرنا فى زمرته آمين .

الشيخ ناصر الدين اللقانى

ومنهم الشيخ الإمام العلامة المجمع على جلالته الورع الزاهد الشيخ ناصر الدين اللقانى المالكى رضى الله تعالى عنه ، وهو أخوه ، انتهت إليه الرئاسة بعد أخيه الشيخ شمس الدين فى العلم والعمل والتحقيق والوقوف عند قوله . جاءته الأسئلة من بلاد المغرب والتكرور واليمن والحجاز والشام والروم ، وتخرج به جماعة مذهبه الموجودون الآن ، فلا يوجد مالكى إلا وهو من طلبته أو طلبة طلبته .

وكان رضى الله عنه من أعظم الناس اعتقاداً فى طائفة القوم ، وما دخلت عليه قط وهو جالس على فروته إلا قام وأجلسنى عليها وجلس على الأرض ، وأظن أن تلامذة طلبته لاتفعل ذلك مع مثلى .

ولما دس بعض الحسدة على كتابى العهود وغيره مسائل خارجة عن ظاهر[1]

---

(١) من هنا يتأكد لنا أن ماهو مخالف لظاهر الشريعة فى الطبقات الكبرى وغيرها مدسوس على الإمام الشعرانى رضى الله عنه . وهذا اعتراف منه بذلك .

الشريعة أجاب عنى على تقدير صحتها[1] بأحسن جواب[2] .

ثم إنى اجتمعت به وأخبرته أن تلك المسائل مدسوسة ، وأطلعته على النسخة التى عليها خطه[3] ، ففرح بذلك أشد الفرح .

وكان رضى الله تعالى عنه يقول : مانصحتكم لأمر دنيوى ، وإنما نصحتكم لتأخذوا بيدنا فى يوم القيامة .

ولما رد الشيخ محمد التونسى فتواه فى حادثة رأيت تلك الليلة الشيخ ياقوت العرشى وهو يقول الشيخ محمد التونسى : مالك ولشيخ المذهب تَرد عليه بغير علم ، وزجره أشد الزجر ، فشهد له بأنه شيخ المذهب .

وزرته مرة فوقفت على الباب وأنا ساكت لم أدق عليه الباب أدباً معه ، فخرج وهو مذعور وقال : قد سمعت قعقعة سقف القاعة وحيطانها ، حتى خفت من أنها تنطبق علىّ ، ثم صار يحكى ذلك لجماعته . ووالله إنى لم أتوجه إلى الله تعالى فيما وقع ، وإنما ذلك أمر من الله تعالى ابتداء .

مات رضى الله تعالى عنه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة رحمة الله تعالى عليه .

الشيخ شهاب الدين الفيشى

ومنهم الشيخ الإمام العلامة مفتى المسلمين الشيخ شهاب الدين الفيشى المالكى رضى الله تعالى عنه .

صحبته سنة بعد أن عرضت عليه محفوظاتى وأجازنى ودعا لى بدعوات

---

(١) فى الأصول : بتقدير .

(٢) وعلى هذا يحمل جواب شيخ الإسلام زكريا الأنصارى عن بعض المسائل الخارجة عن ظاهر الشريعة فى الطبقات الكبرى على فرض صحة صدورها عن شيخ الإسلام .   (٣) فى ا : خطه عليها

وجدت بركتهن . وكان مذهب الإمام مالك نصب عينيه ، وأكثر أيامه صائماً ، وكان يتهجد كل ليلة بثلث القرآن . وأوصانى بوصيته فانتقشت فى قلبى إلى الآن ، فانتفعت بها .

قال لى : يا ولدى ، لا تعوّل على حفظ العلم من غير عمل ، كما عليه الناس اليوم تخسر دينك . وكان مجلسه مجلس هيبة ووقار وأدب وعلم ، وكان دائم الطهارة لا يحدث إلا ويتوضأ . هكذا قال لى أصحابه رضى الله تعالى عنه .

الشيخ عبد الرحمن الأجهورى

ومنهم أخى المحب الصادق العالم العامل الزاهد ، مفتى المسلمين الشيخ عبد الرحمن الأجهورى المالكى رضى الله تعالى عنه .

أخذ العلوم عن الشيخ شمس الدين اللقانى ، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين اللقانى وغيرهما ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، فدرس العلم وأفتى فى حياة أشياخه .

وكان الشيخ ناصر الدين إذا جاءته الفتوى يرسلها له من شدة إتقانه وحفظه للمنقول رضى الله تعالى عنه . وما زار أحداً من العلماء قدر ما زارنى ، كان رضى الله عنه لا يكاد يتخلف عن زيارتى كل يوم أربعاء .

وكان الشيخ يوسف الحريثى يقول : أحب من الدنيا ثلاثة : الشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، والشيخ يوسف البشلاوى ، وعبد الوهاب الشعرانى .

وكان الشيخ عبد الرحمن كريم النفس قليل الكلام واللغو ، حافظاً لجوارحه عن المخالفات ، كثير التهجد فى الليل ، كثير التلاوة للقرآن ، زاهداً ورعاً كثير الأدب مع إخوانه .

تفقه عليه خلائق لا يحصون ، وكتب على مختصر الشيخ خليل ، وألف

عدة كتب نافعة وصلت إلى بلاد المغرب وبلاد التكرور ، صحبته أربعين سنة فما سمعته قط يذكر أحداً بسوء من أقرانه ، على ما أتاه الله تعالى من علم أو مال أو جاه أو إقبال من الناس ، بل يقول : لولا أنه يستحق ما أعطاه الله تعالى ذلك .

ولما مرض دخلت عليه فوجدته لا يقدر أن يبلع الماء من غصة الموت ، فدخل عليه شخص بسؤال فقال : اجلسونى ، فأجلسناه وأسندناه فكتب ، فلم يقف له ذهن مع شدة المرض رضى الله عنه وقال : لعل ذلك آخر سؤال أكتب عليه ، فمات تلك الليلة رضى الله تعالى عنه .

حضرت معه أنا والشيخ أبو العباس الحريثى قراءة المواهب[1] مع مؤلفها الشيخ شهاب الدين القسطلانى شارح البخارى ، وجمع عليه الأربعة عشرة قراءة .

مات رضى الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة ودفن تجاه مقام إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام بجامع محمود بالقرافة ، وقبره ظاهر ، وكان كلما مر على قبر يقول : أنا أحب هذه البقعة ، رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين العبادى

ومنهم الشيخ العلامة المحقق الورع الزاهد الشيخ شمس الدين العبادى الشافعى رضى الله تعالى عنه .

صحبته عشر سنين ، فما رأيت أكثر صمتاً منه . ثم مرض فأكل حامضاً فثقل لسانه . أفتى ودرس فى الجامع الأزهر ، وانتفع به خلائق ، ولم يزل فى ازدياد ، إلى أن مات رضى الله تعالى عنه آمين .

---

(١) هو كتاب المواهب اللدنية فى الشمائل المحمدية ، وقد شرحه الزرقانى شرحاً مبسوطاً فى سبعة مجلدات .

الشيخ شهاب الدين البلقيني

ومنهم الشيخ الصالح المجمع على حالته الشيخ شهاب الدين البلقيني رضي الله تعالى عنه . كان رضي الله عنه غريباً في أقرانه ، لكثرة زهده وورعه ، وحسن خلقه ، وحلاوة لسانه ، وضبطه .

أخذ العلم عن عدة من العلماء الأعلام ، ومن أجلهم العلامة الشيخ شهاب الدين الرملي الأنصاري رضي الله تعالى عنه ، ولازمه ملازمة شديدة حتى أجازه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى في حياته ، وانتفع به خلائق ، حتى كانت حلقته أوسع من حلقة شيخ .

وأخذ طريق القوم عن سيدي علي المرصفي ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشوني ، شيخ مجلس الصلاة على النبي ﷺ في جامع الأزهر[1] ، وأحبه غاية المحبة ، واستخلفه في مجلسه في حياته وبعد مماته ، وقدمه على جميع أصحابه وقال : ما قدمته في المجلس إلا بعد مشاورة النبي صلى الله عليه وسلم ، واعتقد علمه وصلاحه ، الخاص والعام ، واشتهر في مصر وقراها ، والشام ، والحجاز ، والروم .

وصحبته رحمه الله تعالى نحو أربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه في دينه ، وما ذكره أحد بسوء إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثياب خضر وبيض نقية الخضرة والبياض ، فأعرف بذلك كذب الحاسد وصدق الشيخ شهاب الدين وشدة إخلاصه .

وما رأيته قط التفت إلى وظائف الفقهاء ، بل تربى على العفة والورع والزهد في الدنيا حتى أتته وهي راغمة .

---

(١) وكان طريقه هو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يلقن غيرها ، ويوصي بالدوام عليها في كل وقت حتى تصبح ملكة لا تفارق القلب .

ووقع لى مرة معارضة[1] من أصحاب النوبة من العجم فما كنت إلا هلكت ، فأتانى زائراً هو والشيخ نور الدين الشونى ، والشيخ أبو العباس الحريثى ، والشيخ شهاب الدين الوفائى رضى الله عنهم وجماعة . فلما أرادوا الانصراف قال لهم الشيخ شهاب الدين البلقينى : كيف تذهبون وأنتم مشايخ مصر ، والرجل بمرضه ، ما حملتم عنه شيئاً . فصار كل واحد يقول لصاحبه : احمل أنت عنه ، فيرد الأمر عليه ، فقال الشيخ شهاب الدين البلقينى : مدّونى وأنا أحمل عنه . ثم وضع رأسه فى طوقه مقدار درجة ، فقمت فسبقتهم إلى خارج الدار ، وكان لى تسعة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام .

ورأيت مرة فى المنام أن الشيخ نور الدين الشونى جالس فى مجلسه بالجامع الأزهر ، والمقصورة مفروشة بالحرير الأخضر ، والعمد كلها مستورة بالحرير ، ونظرت الشيخ نور الدين سحابة خضراء إلى السقف ، فبينما هو كذلك إذ نزل إلى الأرض وابتلعته ، فجاء الشيخ شهاب الدين البلقينى فجلس مكانه ، ثم ابتلعته الأرض كذلك ، ثم جاءونى فأجلسونى واستيقظت ، فقصصت ذلك على الشيخين ، فقالا : إن صدقت رؤياك فأنت تقبرنا وتعيش بعدنا . فكان الأمر كما قالا رضى الله عنهما .

وكان الشيخ شهاب الدين وقائع غريبة مع الجن ، وكانوا يحدثونه ويوضئونه وكان إذا رأى أحداً مركوباً يقول الراكب : اخرج ، فيخرج من غير عزيمة عليه ، وكذلك بلغنا أنه كان يجتمع بالنبى ﷺ يقظة ويحادثه ، أى يجتمع به فى حالة بين النائم واليقظان ، كما هو مقرر فى تأويل كلام القوم .

مات رضى الله عنه فى ثانى صفر سنة ستين وتسعمائة ، ودفن بالقرب من تربة الجامع الأزهر ، رحمة الله تعالى عليه .

---

(١) معركة باطنية تحدث بين الأولياء تحدث منها أمراض وغير ذلك .

الشيخ زكريا بن الشيخ زكريا الأنصارى

ومنهم الشيخ زكريا ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، رضى الله تعالى عنهما .

أخذ العلم عن أبيه المذكور ، وعن الشيخ برهان الدين بن أبى شريف ، وعن الشيخ عبد الحق السنباطى ، وعن الشيخ كمال الدين الطويل .

وكان أبوه يحبه محبة عظيمة ، وأخذ التصوف وطريق القوم ، ولبس الخرقة عن أبيه المذكور ، وعن سيدى على المرصفى ، وعن غيره . وكان ذكيا ، حلو اللسان ، جميل المعاشرة ، كريم النفس ، كثير التهجد فى الليل ، كثير الصدقة والاعتقاد لفقراء الركب ، وكان كثير البكاء عند سماع شىء من أهوال يوم القيامة .

مات رضى الله عنه فى شوال سنة تسع وخمسين وتسعمائة ، ودفن خارج باب النصر ، تجاه السيدة زبيدة ، رحمه الله تعالى .

فصـــل

فى مناقب جماعة من علماء العصر الأحياء

ولنذكرهم على ترتيب سبق أعتهم بالزمان . فنبدأ بأصحاب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، ثم بأصحاب الإمام الشافعى محمد بن إدريس ، ثم بأصحاب الإمام مالك بن أنس ، ثم بأصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، غير ملتزمين تقديم الأفضل من كل مذهب ، لجهلنا بحقيقة مقامهم الذى يموتون عليه ، فإن التحول والتبديل ربما وقع لأحدهم ، فيقع وصفنا له على خلاف الواقع ، فيكذبنا الحس .

وكذلك قلّ من يذكر مناقب أحد من الأحياء فى حياته ، وإنما يذكرونها بعد مماتهم ، ولكن لما قوى رجائى فى الله عز وجل ، وأنه لايسلب أحداً منهم ماوهبه له من العلوم والمعرفة والأخلاق الحسنة أجرأنى ذلك على ذكر مناقب من صحبته من الأحياء ، ولم أذكر منهم إلا من أفتى ودرس فى مذهبه بإذن أشياخه ، لأن ذلك غاية مايصل إليه طالب العلم .

وكذلك لا أذكر منهم إلا من علمت بقرائن الأحوال أنه لايحب الشهرة واستحقر نفسه أن يذكره أحد فى طبقات العلماء العاملين ، لعلمى أن من أحب الشهرة ، فهذا مرائى ، وعيوبه مكشوفة للناس ، فلافائدة فى الناس فيما أصفه به وقد كان الإمام مالك رضى الله عنه يقول : لوأحب العلماء أن يعرفوا لما عرفوا .

وقد كنت ذكرت بعض جماعة فى هذه الطبقات ، فقال لهم بعض الحسدة : إن فلاناً ذكر أقرانكم ولم يذكركم ، فجاءونى فعتبوا علىّ لكونى لم أذكرهم بناء على صدق ذلك الحاسد ، فرفعتهم من الكتاب ، لعلمى أن من أحب الشهرة لابد أن ينطفىء اسمه ، ولو على طول الزمن ، فلايفيده ذكرى له .

وقد أجمع القوم على أن علامة العالم العامل أن يرى نفسه أحقر عباد الله

تعالى على الإطلاق[1] كما كان عليه سيدى عبد العزيز الدرينى ، وسيدى عبد الله المنوفى ، فكان أحدهما إذا جاء إلى وليمة ولم يقم إليه أحد ولم يفسح له يزداد سروراً ، وإذا قدموا لأصحاب الصحون التى أكلها الناس يلحسونها ويزدادون سروراً ويقولون : أكلنا فضلة هؤلاء الناس الصلاح ، وحصل لنا بركتهم .

وأنا أرجو من فضل الله أن يكون جميع من ذكرتهم على هذا القدم ، وجل قصدى من ذكر صحبتهم من هؤلاء العلماء فتح باب الاعتقاد فيهم من أهل عصرهم ، فيأخذوا عنهم العلم والأدب ، وينتفعوا بعلمهم ، فإنهم قالوا : الحاضرة حجاب[2] .

فترى بعض الناس لايقيم لأحد من أهل عصره وزناً ، ولا يعتمد على فتواه إلا إذا مات ذلك المفتى ، ويخلف ذلك المعاصر بعده ، فيصير بعده من العلماء ، ويسمى مايراه فى مؤلفه منقولا ، ويحتج به .

ومن قريب تخلو الديار المصرية من هؤلاء العلماء ، ويفقد الناس أنوار علومهم . فالعاقل من تأدب مع علماء زمانه وأقرانه ، وأخذ منهم ما معهم من العلم والسلام . إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق :

الشيخ شمس الدين البرهمتوشى[3]

فمن صحبته من علماء الحنفية الشيخ الإمام العلامة المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً ، المعتزل عن الناس فى بيته عملا بالسنة المحمدية ، الشيخ شمس الدين

---

(١) المراد اتهام النفس فى كل أفعالها بالتقصير وعدم الكمال ، لأن الرضاء عن النفس بداية الانحراف .

(٢) يعنى : الشىء الحاضر يحجب الإنسان عن إدراك سره .

(٣) نسبة إلى برهمتوش ، من أعمال سمنود بمحافظة الغربية بمصر .

البرهمتوشى ، فسح الله فى أجله للمسلمين . لى فى صحبته الآن مدة عشر سنين ، فما أظن كاتب الشمال كتب عليه شيئاً . وإن وقع له أن عرض لأحد على وجه التنفير ، فذلك من باب النصح للأمة ، لا لحظ نفسه . وقد كان الإمام البخارى رضى الله عنه يجرح الرواة كثيراً ويقول : أرجو من الله عز وجل ألا يطالبنى فى يوم القيامة بغيبة فى أحد . وذلك لأنه يريد بالتجريح نصرة الدين لا التشفى بذلك النفس .

وبالجملة فالشيخ شمس الدين هذا فريد عصره ، ونادرة زمانه فى العلم والعمل والإخلاص ، وعدم الوقوع فيما يذل نفسه لأبناء الدنيا ، حتى أن بعض الولاة ولاه وظيفة تدريس جليلة عند الناس ، فتوقف على أن يذهب إلى الأمير ويشكر فضله ، فلم يفعل وتركها .

ومما وقع لى أنه كشف لى ذات ليلة فرأيت أعمال علماء الجامع الأزهر وهى صاعدة ، فما رأيت أعمالهم أضوأ ولا أنور من عمله . فعلمت بذلك علو مقامه فى الإخلاص وكيف لا يكون عمل من اعتزل عن الناس أضوأ وأنور وذات المعتزل قد تنظفت عن سائر الأدناس والأنجاس تبعاً للقلب ، فإنه إذا استنارت أضاءت الذات وأضاءت الأعمال[1] .

وقد مررت مرة على قناطر السباع التى عملت من الحجارة[2] ، فنظرت إلى سبع منها قريب من الناس عليه النخامات والبصاق حتى اسود وقبحت رائحته . فقال شيخ قد طعن فى السن : انظر ياولدى واعتبر وتأمل فى ذلك

---

(١) يشير إلى وصية النبى صلى الله عليه وسلم بلزوم المؤمن بيته فى عصور الفتن . وهذه الإشارة وغيرها فى مؤلفات الشعرانى تؤكد أنه كان صاحب مذهب إصلاحى خطير .

(٢) كانت على خليج أمير المؤمنين بالقرب من المشهد الزينبى .

السبع لما قرب من الناس كيف تغيرت أحواله ، وتأمل فى ذلك السبع الذى فوق الحائط الذى لا يصل إليه أحد كيف هو أبيض يلمع فى الشمس مثل الشيخ شمس الدين لما بعد عن الناس .

فأخذت لنفسى عبرة من ذلك ، فمثل الشيخ شمس الدين هذا ، وله المثل الأعلى من السبع ، مثال ذلك السبع الذى لا يصل إليه أحد . نسأل الله تعالى أن يزيده من فضله . آمين .

أخذ العلم عن جماعة ، منهم شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، والشيخ العلامة المحقق العالم العامل المجمع على جلالته الشيخ محمد نعوش المغربى المالكى حين قدم إلى مصر من الروم ، وقرأ عليه أجلاء علماء مصر ، وانتفعوا به ، ولم يزل رضى الله عنه يقرأ على العلماء والأشياخ حتى تبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول ومعان وبيان وغير ذلك . وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس ، فدرس العلم وأفتى مرة ، ثم امتنع عن الفتيا تورعاً منه رضى الله عنه .

وانتفع به خلائق لا يحصون من أهل مصر والحجاز والعجم والروم ، وأقبل عليه الطلبة إقبالا عظيما ، وقدموه على أقرانه لما هو عليه من العلم والعمل والزهد والورع وقلة التردد إلى الأكابر مثل غيره ، وعدم مزاحمته على شىء من وظائف الفقهاء اقتداء فى ذلك بالسلف الصالح رضى الله تعالى عنه . فأسأل الله تعالى أن ينفعنا بعلومه ، ويرزقنا الأدب معه إلى الممات ، وأن يحشرنا فى زمرته فى الآخرة تحت لوائه . آمين آمين آمين .

مات رضى الله عنه فى ثالث جمادى الأولى سنة اثنين وسبعين وتسعمائة ، ودفن بمقبرة المجاورين ، بجوار تربة السلطان قايتباى رحمه الله تعالى آمين .

الشيخ سراج الدين الحانوتى

ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتى رضى الله تعالى عنه . ما رأيت فى أقرانه أكثر اعتقاداً منه فى طائفة الفقراء ، لا يكاد يغفل عن زيارتهم أحياء وأمواتاً ، وقد استحييت من كثرة زيارته لى ماشياً تبعاً لشيخه الشيخ شهاب الدين بن الحلبى رحمه الله تعالى .

صحبته نحو عشر سنين إلى وقتنا هذا ، فما أظن أن كاتب الشمال وجد شيئاً يكتبه عليه من شدة تقواه وضبطه لجوارحه ، وما سمعته يذكر أحداً من المسلمين وغيرهم بغيبة ، حتى أنه دخل عليه طبيبان من اليهود فى مرضه فقلت إن أحدهما أعرف بالطب من الآخر .

وما رأيته قط يزاحم على شيء من الدنيا ، ولا يتردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية ، من شفاعة فى مظلوم ونحو ذلك .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية ، والشيم المرضية ، والأحوال السنية ، لا يكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل ، من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة .

لم يزل من حين صحبته على قدم التواضع وهضم النفس . وجلس عندى مرة بحضرة شخص من الأولياء فقال لى : نظرة هذا الرجل نظرة أرباب الأحوال[1] فعرفت مقامه من نفس نظرته دون شيء من أعماله الزكية لكثرة إخفائها عن الناس ، ولو أنى أعرف منه محبة عدم الشهرة لأوسعت الكلام ببعض محاسنه

---

(١) الأحوال من نتائج العلم أو من نتائج العمل على خلاف بين القوم ، وهى تلون القلب بين الهيبة والأنس ، أو القبض والبسط ، أو الجلال والجمال ، وتعاقب هذه الأحوال وغيرها عليه .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وأن ينفعنا ببركاته ، ويجعل فى ذريته وطلبته العلم والبركة آمين ، ويحشرنا فى زمرته آمين .

مات رضى الله عنه سنة سبعين وتسعمائة . وكان مولده عام تسع وتسعين وثمانمائة .

الشيخ بشر

ومنهم العلامة الصالح العالم العامل الشيخ بشر رضى الله عنه . أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين الطرابلسى ، وشيخ الإسلام الشيخ عبد البر ابن الشحنة ، وغيرهم من العلماء ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، وأفتى فى جامع الأزهر وغيره ، وانتفع به خلائق ، وقد غلب عليه الآن محبة الخفاء والخمول والجلوس وحده ، وترك التردد للناس حتى صار كأنه لم يعرف أحداً . فقيل له فى ذلك . فقال : قد ضاع عمرى من الاشتغال بأمور الناس ومخالطتهم .

وصحبته نحو خمس سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، وما رأيته قط يغتاب أحداً من أقرانه ولا غيرهم . وهو من أجل أصحاب الشيخ نور الدين الطرابلسى . وجلس مدة يقضى بين الناس نيابة عن شيخ الإسلام ، ثم ترك القضاء ، وأقبل على العبادة من صوم وقيام ليل ومراقبة[1] وصمت . وما أتانى قط إلا وجدته صائماً . وأخبرنى من يخالطه أنه يفطر على كسرة يابسة فى أكثر أيامه ويكتفى بها . رضى الله تعالى عنه . آمين .

الشيخ بدر الدين الشهاوى

ومنهم الشيخ الأخ الصالح العالم العلامة الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى رضى الله تعالى عنه . صحبته نحو ثلاثين سنة فما زاغ عن الشريعة فى

---

(١) المراقبة : دوام نظر القلب إلى هيبة الله تعالى فى كل حال .

شيء من أفعاله وأقواله وعقائده . أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ نور الدين الطرابلسي شيخ الإسلام ، والشيخ شهاب الدين الحلبي . فلم يزل يقرأ عليه حتى تبحر في علوم الشريعة والإفتاء ، فأحبه حباً شديداً وزوجه ابنته ، وأجازه في الإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى في حياة أشياخه بإذنهم .

وأخذ طريق التصوف عن سيدي أبي السعود الجارحي رضي الله تعالى عنه فكمل بذلك حاله ، لأن الفقيه إذا لم يكن له علم بطريق القوم فهو ناقص في المقام ، إذ بمعرفة طريق القوم يعرف العبد دقائق الرياء والنفاق في أحواله فيستغفر منها ويتوب ، ومن لايعرف طريق القوم ربما يموت على عدة من الكبائر الباطنة من حسد وغل وحقد وعجب وكبر ورياء ونفاق ومحبة للدنيا ، ولا يهتدي للتوبة ، فتأمل ذلك .

ومن صفاته رضي الله تعالى عنه كثرة ذكر الله عز وجل بلسانه وقلبه . ماجالسته قط ورأيته غافلا وشهود أنه يراه ، وهذه أكبر حالة تحصل للفقراء بعد طول مجاهدتهم .

ومن صفاته النصح لإخوانه ، وعدم المداهنة لهم ، مع ماهو عليه من كثرة الصيام ، وقيام الليل ، والصدقات الخفية ، وله القدم العظيم في كتم أحواله وأفعاله عند الناس حتى عن عياله ، وله صبر عظيم عن العزلة والجلوس في بيته فلا يخرج إلا لضرورة شرعية من صلاة جماعة وتدريس ونحو ذلك .

وأوصافه الحسنة تجل عن تصنيف . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وأن يحشرنا في زمرته . آمين . آمين . آمين .

الشيخ أمين الدين بن عبد العال

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الورع الزاهد فى الدنيا والآخرة الشيخ أمين الدين بن عبد العال رضى الله تعالى عنه . صحبته نحو أربعين سنة فما رأيته زاغ عن السنة المحمدية ، ولا اعتنى بشىء من الملابس ، ولا توقف فى ركوب الحمار على بساط ، وأكثر خروجه للسوق بلا رداء ، بل ثيابه فى بيته هى التى يخرج بها إلى درسه ، طارحاً للتكلف جملة فى جميع أحواله ، لا يكاد أحد يميزه من العامة .

ودخلت عليه مرة وهو جالس فى الدرس أيام الشتاء فى حوش السلطان « جانبلاط » فسطع لى منه أنس عظيم حتى امتلأت جوارحى منه أنساً ، ورأيت باطنه ممسوحاً من الأعراض النفسانية كباطن الطفل ، وما وقع لى ذلك قط مع أحد من أقرانه .

وكان والده الشيخ عبد العال رجلا صالحاً كريماً عفيفاً لا يمكن أحداً أن يفارقه حتى يقدم له شيئاً يأكله ، ودخلت عليه مرة فلم يجد عنده طعاماً فقدم لى الماء وقال : اشرب ولو يسيراً . وربما وجد اللقمة اليابسة فيضعها بين يدى الأمير ونحوه ، رضى الله تعالى عنه وعن ولده الشيخ أمين على تقوى وعلم وأدب .

أخذ العلم عن جماعة ، منهم الشيخ نور الدين الطرابلسى ، وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس فى حياتهم بإذنهم له فى ذلك ، ووقف الناس عند قوله ، وأجمعوا على كثرة ورعه وزهده وحفظ جوارحه من المخالفات ، وكان أكثر أوقاته جالساً وحده لمحبته العزلة اقتداء بالسلف الصالح .

وما جالسته قط إلا ورأيته مشغولا بالله عز وجل وبأهوال يوم القيامة ، وله القدم الراسخة فى كلام القوم ، لا سيما كلام الشيخ محيى الدين بن عربى

رضى الله تعالى عنه . وكانت أكثر أعماله قلبية . وسمعته يقول : كل عمل ظهر من أمثالنا دخله الدخيل .

وعرضوا عليه مرة عدة وظائف من تدريس وغيره فأبى . وبالجملة فأوصافه الحسنة كثيرة ، فأسأل الله عز وجل أن يزيده من فضله ، وأن ينفعنا ببركاته آمين ، اللهم آمين .

مات يوم الأحد المبارك ثانى عشر من رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ، ودفن فى باب النصر ، تجاه المدرسة الجانبلاطية .

الشيخ شرف الدين البلقيني

ومنهم الشيخ الإمام المجمع على جلالته وعلمه وصلاحه وزهده وورعه الشيخ شرف الدين البلقينى شيخ تربة « خاير بك » ملك الأمراء ، رضى الله تعالى عنه .

صحبته نحو أربعين سنة فما رأيته حاد عن طريق الشريعة ، ورؤية وجهه تشهد لى بذلك ، لما عليه من الأنس والهيبة والخشوع . أخذ العلم عن جماعة ، منهم شيخ الإسلام نور الدين الطرابلسى ، والشيخ برهان الدين بن أبى شريف وغيرهما ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، وانتفع به خلائق .

وأخذ طريق القوم عن جماعة ، منهم : سيدى محمد المغربى الشاذلى . وله أحوال عظيمة وتهجد طويل ، بالليل . ويحب إخفاء الأعمال ، فلا يكاد يطلع على عمله أحد ، وما رأيته قط إلا وحصل لى فى باطنى انشراح صدر ، وانفساح ، وزيادة حياء ، وهذه من أكبر علامات الصالحين .

وما رأيت فى أقرانه أكثر سمة منه ، ولا أكثر تواضعاً ولا هضماً النفس ، وما تغير على أحد فأفلح بعد على يد غيره وذلك لما هو عليه من الضبط

والمناقشة لطلبته ، ومن فر من مناقشة شيخه له فهو لا شك يفر من كل شيء وناقشه بعد ذلك[1] . ولولا أنى أعلم منه محبته الخمول وعدم الشهرة لذكرت من محاسنه ماتقر به العيون .

فأسأل الله تعالى من فضله أن يزيده علماً وعملا وجمعية قلب على الله تعالى حتى يلقاه . آمين .

مات رحمه الله تعالى . . . .[2]

الشيخ زين العابدين بن نجيم

ومنهم الأخ الصالح والعلامة المحقق المدقق العابد الزاهد الشيخ زين العابدين ابن نجيم ، رضى الله عنه .

صحبته نحو عشر سنين إلى الآن ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، وحججت معه فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فرأيته على قدم عظيم مع جيرانه وغلمانه فى ذهابنا وإيابنا ، مع أن السفر يسفر عن أخلاق الرجال ، ويخرج فيه الأخلاق عن الحد[3] .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شرف الدين البلقينى ، والشيخ شهاب الدين بن الحلبى ، والشيخ أمين الدين بن عبد العال ، وأبى الفيض السلمى وغيرهم . وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس فى حياة أشياخه بإذنهم ، وانتفع به خلائق لايحصون ، وله عدة مؤلفات حرر فيها نقول مذهبه لا يستغنى عنها مفت ولا مدرس .

---

(١) وذلك لأن الشيخ حافظ لأسرار طلبته ، فإذا فر الطالب عن يحفظ أسراره فبالأحرى يفر من غيره من لا يحفظون السر .

(٢) بياض فى الأصول .

(٣) أى بطرفيها الحسن أو القبيح .

وأجمع الفقهاء على أدبه وجلالته ، وما تخلف عن الإذعان له إلا كل من عنده حسد أو جهل بمقامه .

وما رأيت فى أقرانه أكثر فوائد ولا أحسن منه ، وله الاعتقاد العظيم فى طائفة القوم . وقد شاورنى فى ترك الإفتاء والتدريس من الإقبال على طريق القوم . فقلت له : لا تدخل فى طريق القوم إلا بعد تضلعك فى علوم الشريعة ، وحتى تصير تقطع جميع علماء مصر بالحجج القاهرة فى مجلس المناظرة ، فأجابنى إلى ذلك ، وقد بلغ بحمد الله ذلك .

وأخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ سليمان الخضيرى ، وصار له ذوق عظيم فى الطريق يحل به مشكلات القوم ويوجهها على أحسن حال ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علماً وعملا وصلاحاً ويحشرنا فى زمرته آمين .

الشيخ شمس الدين القلقشندى

ومنهم الأخ الصالح العالم الورع الزاهد الشيخ شمس الدين القلقشندى ، المسيرى الأصل ، المقيم بالمدرسة الأشرفية بخط الوراقين رضى الله تعالى عنه .

صحبته نحو عشر سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل نشأ على علم وخير وأدب وعمل ، وحججت معه فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة ، فما رأيت فى أقرانه أكثر مروءة ولا عبادة منه ، هو والشيخ شمس الدين الشربينى الخطيب ، فإنى رأيتهما يمشيان عن جمالهما غالب المراحل وهما مشغولان بتلاوة القرآن وإفادة الناس وتعليمهم المناسك ، ورأيته كثيراً يعطى نعله الفقراء الحفاة ويمشى هو حافياً ، وكذلك رأيته يطوى عن الطعام والشراب فى غالب أيامه ويعطى عشاءه وغداءه إلى الفقراء ، وظهر لى منه فى تلك السنة علو همته ، وكثرة إخفائه أعماله التى لا يقدر أحد على المداومة عليها قط .

أخـذ العلم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين الطرابلسى ، والشيخ شهاب الدين بن الحلبى ، وأجازه مشايخه بالإفتاء والتـدريس ، فأفتى ودرس فى حياة أشياخه ، وانتفع به خلائق ، ولا أعلم أحداً يحفظ نقول المذهب مثله ، وأقبل على العلم والعمل والعبادة ، وتولى القضاء مدة ثم عزل نفسه ، ومات رضى الله عنه .

الشيخ صدر الدين

ومنهم الشيخ الإمام العالم العـلامة المفتى الأخ الصالح الورع الزاهد صـدر الدين الإمام بجامع القلعة ، رضى الله تعالى عنه . صحبته عدة سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، ولم يزل مقبلا على عبادة ربه والعلم والعمل والعبادة ، وله تهجـد عظيم فى الليل ، وحفظ الجوارح ، ومجلسه مجلس عـلم وأدب وحياء ، وما رأيت فى أقرانه أحسن خلقاً منه ، ولا أكرم نفساً . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علماً وعملا وزهداً وورعاً ويحشرنا فى زمرته آمين آمين آمين .

الشيخ محب الدين البـكرى

ومنهم الشيخ الإمام العلامه الصـالح الشيخ الذى لايخاف فى الله لومة لائم الشيخ محب الدين البكرى رضى الله تعالى عنه .

هو من بيت عـلم وصـلاح ، وتولى والده الشيخ رضى الدين قاضى ديوان الشريف . صحبته نحو أربعين سنـة فما رأيته حاد عن طريق الحق ، ولا هاب أحداً من الولاة والأكابر ، بل يصدعهم بالحق ، وهذا الأمر قـد انفرد به فى مصر الآن ولم يشاركه فيه أحد مع ما هو عليه من الورع والزهد وعدم قبول الهـدية ممن لايتورع فى كسبه . وما ثارت فى مصر فتنة إلا وكان خمودها على يديه ، ولم يزل يصلح بين العلماء والأكابر إذا وقع بينهم تنافر وتدابر ، وكلامه مقبول عند سائر الناس ، وذلك دليل على صدقه وإخلاصه .

ولما وقعت الفتنة فى مسألة استبدال الأوقاف أيام قاضى العسكر محمد إلياس وعارضهم الشيخ نور الدين الطرابلسى ، كاتبوا فيه السلطان ، فأرسل مرسوماً بشنق الشيخ نور الدين . ورأيت وأنا بين النائم واليقظان لوحاً نزل من السماء معلقاً بسلسلة من فضة تجاه الشيخ محب الدين ، مكتوباً بخط أخضر ، يقرؤه جميع من يمر عليه ، فأرسلت وأعلمت الشيخ بذلك ، فلما جاء المرسوم كانت نجاته على الشيخ محب الدين .

وبالجملة فما رأيت فى عصر الشيخ محب الدين أكثر اهتماماً بأمور المسلمين ولا أكثر خوفاً من الله عز وجل ، ولا أنصر للحق منه ، يكلم أعظم الأمراء كما يكلم آحاد الناس .

بلغنا أنه لما صحب الشيخ الكامل سيدى محمد المغربى الشاذلى شيخ جلال الدين السيوطى فى التصوف قال له : يامحب الدين تكلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، ولا تخف من أحد . فلذلك لم يكن فى مصر أحد من العلماء يواجه الباشات والأمراء والدفاتر بالكلام الجافى المر إلا هو . وكذلك لما صحب الشيخ على المرصفى والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ أبا السعود الجارحى وغيرهم . وكانوا كلهم يجلونه ويعظمونه ويصفونه بالصلاح والعلم والورع والدين .

وله تهجد بالليل وأوراد عظيمة وصيام كثير ، وعلى وجهه الخفر والوقار ، وأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفى ، فأسأل الله أن يزيده من فضله ، وأن يحشرنا فى زمرته . آمين . آمين . آمين .

قلت : وبقى جماعة كثيرة من الحنفية ذكرناهم فى كتاب المفاخر والمآثر فى بيان علماء القرن العاشر ، كالشيخ عمر بن الجيعد ، وسيدى سرى الدين بن الصائغ ، وسيدى يحيى الرهاوى ، وسيدى محمد بن الحلبى ، وسيدى يحيى الوفائى فمن أراد الاطلاع على حالهم فلينظر الكتاب المذكور . والله تعالى أعلم .

وأما أصحابنا من علماء الإمام مالك رضى الله عنه .

فنهم الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد الورع المجمع على جلالته

الشيخ عبد الرحمن الناجورى

المقرىء المقيم بالمدرسة العينية ، رضى الله تعالى عنه صحبته صحبة قلبية نحو عشر سنين إلى الآن فما رأيته زاغ عن الطريق الشرعية فى شىء من أحواله ، وهذا أعظم كرامة تكون للأولياء .

أخذ رضى الله تعالى عنه العلوم الشرعية عن الشيخ شمس الدين اللقانى ، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين اللقانى وغيرهما ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، فدرس ولم يفت تورعاً ، وله حال عظيم مع الله تعالى فى سره وصيامه وقيامه ، يتعاطى حوائجه بنفسه من السوق ويحملها ولا يمكن أحداً يحملها معه على طريق السلف الصالح .

وله ضبط عظيم لجوارحه حتى لايكاد صاحب الشمال يجد شيئاً يكتبه عليه ، وله شمرة تضرب إلى شحمة أذنه اتباعاً للسنة المحمدية .

قلت : ورأيت رسول الله ﷺ فأمرنى بمطالعة كلام الإمام مالك لأجله ، وذلك لأن شخصاً ورد عليه زائراً فقال : اقرأوا لنا الفاتحة لما أراد الانصراف . فقال الشيخ عبد الرحمن : هذا لم يرد فيه شىء عن النبى ﷺ . فلما أعلمنى بذلك قلت له : الأمر سهل فى ذلك ، لو أنه قرأ لك الفاتحة لم يؤاخذه الله تعالى على ذلك . فرأيت رسول الله ﷺ وقال لى : عليك بالاطلاع على أقوال إمام دار هجرتى ، والوقوف عندها ، فإنه شهد آثارى .

فعلمت أن توقف الشيخ عبد الرحمن عن القراءة لعدم ورود شىء فيها أفضل من الابتداع ولو استحسنه العلماء ، وعلمت أن الإمام مالك رضى الله عنه

من أشد الناس اتباعاً للسنة المحمدية ، فلذلك طالعت المدونة الكبرى والموطأ ، وحررت منهما المسائل التى اختص بها الإمام مالك عن الأئمة ، لأقف عندها عملا بإشارة رسول الله ﷺ ، وكانت هذه الرؤية كرامة الشيخ عبد الرحمن لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نصره علىّ ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وأن ينفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة . آمين آمين آمين .

الشيخ عبد القادر المرشدى

ومنهم الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ عبد القادر المرشدى رضى الله تعالى عنه . صحبته سنين عدة فما رأيت عليه شيئاً فى دينه ، ورأيته رضى الله عنه على قدم عظيم فى الزهد والورع وهضم النفس حتى كأنه تراب ، مع ما هو عليه من حسن الخلق والكرم ، وحفظ الجوارح ، وحلاوة النطق .

أخذ العلوم الشرعية وتوابعها عن عدة من المشايخ منهم الشيخ العلامة المجمع على جلالته وورعه وزهده وعلمه الشيخ ناصر الدين اللقانى ، فاشتغل عليه حتى تبحر فى العلوم ، وأجازه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة مشايخه .

وكان الشيخ ناصر الدين اللقانى يرسل له الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب ، وهو على قدم عظيم فى احتمال الأذى ممن آذاه ، ولا يقابل أحداً من أعدائه بسوء ، بل يصبر ويدعو الله بالمغفرة ، وما رأيته قط زاحم على شىء من وظائف العلماء ، ولا تردد لأحد من أبناء الدنيا ، وإذا جالسه أحد لا يكاد يفارقه من حسن خلقه وهضم نفسه ، وجليسه فى راحة منه ، لايكاد جليسه يسمع كلمة واحدة منه فى حق أحد من المسلمين ، وقل مجلس يسلم الآن من ذلك .

وله قيام عظيم فى الليل ، وصيام كثير بالنهار ، لم يزل مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل وتعليمه منذ دخل الجامع الأزهر ، ولم يلتفت إلى شىء من

شهوات الدنيا من مأكل أو ملبس أو منكح أو مسكن ، قد رضى من الدنيا بأقل القليل ، يحب الخمول ويكره الشهرة ، يقنع بالكسرة اليابسة ، ويشكر الله عليها ، ولا يرى نفسه يستحقها ، لم يزل بمعزل عما أقرانه فيه من شدة الحسد بعضهم لبعض ، ولذلك رفعه الله تعالى عن أقرانه ، وجعل الناس يقفون عند قوله . وأوصافه الجميلة الحسنة تجل من تصنيفى . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله . آمين .

الشيخ زين العابدين الجيزى

ومنهم الشيخ الصالح العالم الزاهد المجمع على جلالته وعلمه ودينه وضبط جوارحه ، وخوفه من الله تعالى وخشيته له ، الشيخ زين العابدين الجيزى . صحبته نحو عشر سنين إلى الآن ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل نشأ فى علم وأدب وعبادة وخير .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ العلامة المحقق ناصر الدين اللقانى ، فاشتغل عليه حتى تبحر فى علوم الشريعة ، وأجازه بالإفتاء والتدريس ، وكان يرسل إليه بالأسئلة المشكلة فيجيب عنها فى حياة شيخه ، فيفرح شيخه بها .

وما سمعته قط يذكر أحداً من أقرانه الذين يحسدونه بسوء ، بل يجلهم ويكرمهم فى غيبتهم وحضورهم ، ولا يؤاخذ أحداً منهم على ماوقع منه فى حقه ، بل هو كثير الاحتمال للأذى بطيبة نفس ، وما رأيته قط زاحم على شىء فيه رئاسة ، ولا تردد إلى أحد من الأكابر .

وعرضوا عليه عدة وظائف فأبى أن يقبلها وقنع من الدنيا بالكسرة اليابسة والثياب الدون ، مع كثرة تواضعه وحسن خلقه وبشاشته وحلاوة منطقه ، يقول جليسه : مارأيت خلقاً أحسن منه ولا أكثر تواضعاً ، وكأن الله قد محق

من نفسه كل خلق ردىء[1] ، وأبدله خلقاً حسناً . ولولا أنى أعرف منه محبة الخمول وكراهة الشهرة لأبديت لأهل عصره من أخلاقه مايبهر العقول ، ولكنها سوف تظهر لهم فى الآخرة . فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجله للمسلمين ، وأن ينفعنا ببركاته وبركات علومه فى الدنيا والآخرة .

الشيخ فتح الدين الدميرى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ فتح الدين الدميرى رضى الله تعالى عنه . صحبته نحو خمس سنين فما رأيته زاغ عن الشريعة فى شىء من أحواله ، بل هو خائف من الله عز وجل ، كثير الحياء منه ، كثير المراقبة له ، ما اجتمعت به قط إلا حصل لى منه مدد بمجرد رؤية وجهه المكرم .

تولى القضاء مرة ، ثم عزل نفسه بحيلة ، ثم طلبوه أن يتولى فأبى وأقبل على العلم والعمل والتأهب للدار الآخرة ، وله قيام عظيم فى الليل ، وبكاء وتضرع وابتهال ومراقبة لله تعالى .

أخذ العلوم الشرعية وتوابعها من جماعات ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس فى جامع الأزهر وغيره ، كشيخ الإسلام شمس الدين اللقانى ، وأخيه الكامل المحقق الشيخ ناصر الدين ، والشيخ نور الدين البحيرى ، والشيخ شمس الدين النقاى شارح المختصر ، وشيخ الإسلام يحيى الدميرى ، والشيخ أبى الفضل المحلى وأطلعنى على خطوطهم جميعاً بإجازته رضى الله تعالى عنهم .

وصحب جماعة من الصوفية وأخذ منهم الطريق ، كالشيخ محمد الشناوى شيخنا ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ أبى السعود الجارحى رضى الله

---

(١) فى الأصول : عتق نفسه من كل خلق ردىء .

تعالى عنهم ، وأقبلوا عليه إقبالا عظيما ، وأحبوه ، وحصل له منهم مدد كبير . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وأن يحشرنا فى زمرته مع العلماء العاملين .

وكان أخى العالم الصالح الشيخ عبد الرحمن الأجهورى يحبه ويبالغ فى محبته ويصفه بالزهد والورع والخوف من الله تعالى .

أخذ العلم عن جماعة من العلماء كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، والشيخ فتح الدميرى ، والشيخ نور الدين الديبلى ، وجماعة ، فأحبوه وأثنوا عليه ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، ولم يزل مكبا على الاشتغال بالعلم والعمل ، غير ملتفت إلى شىء من أمور الدنيا ، طارحاً للتكلف ، محباً للخمول ، كارهاً للشهرة ، يلبس ماوجد ، ويأكل ما وجد ، لا يكاد يعرفه أحد من العلماء .

وسمعته يقول مرات : والله ما أرى جميع ما تقلدته من العلم إلا حجة على يوم القيامة بعد العمل به والإخلاص فيه[1] . وما سمعته قط يذكر أحداً بغيبة لا عدواً ولا صديقاً ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله . آمين اللهم آمين .

الشيخ نور الدين الطحلاوى

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد نور الدين الطحلاوى . صحبته عدة سنين إلى الآن ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، ونشأ فى علم وأدب ونسك وعبادة . وأخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ تقى الدين الدميرى . وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأفتى ودرس ، وانتفع به خلائق ، ولولا أنى أعلم منه كراهة الشهرة لأظهرت من محاسنه عجباً ، فأسأل الله أن يزيده من فضله .

---

(١) لأن الإنسان لايمكن مهما أخلص وعمل أن يؤدى مطالب العلم على وجهها ، وإن فرض أنه أداها فلا يمكن أن يقوم بحق شكره ، كما لا يمكن التحرز عن مداخل النفس فيه .

الشيخ غنيم

ومنهم الشيخ الصالح العابد الزاهد الشيخ غنيم شيخ قبة السلطان الغورى رضى الله تعالى عنه . صحبته سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، ونشأ على علم وعمل وديانة وخير ، وكف جوارح عن المخالفات ، وما سمعته قط يحسد أحداً من المسلمين على شىء من الدنيا ، ولا يستغيبه ، وله تهجد بالليل ، بحيث لا يراه أحد إلا مصادفة ، فأسأل الله أن يزيده علماً وعملا وديناً وزهداً وصلاحاً .

الشيخ ناصر الدين الصعيدى

ومنهم الشيخ الصالح العالم العامل بعلمه ، الخائف من الله عز وجل ، ناصر الدين الصعيدى رضى الله عنه . صحبته صحبة قلبية فرأيته على قدم عظيم فى الإيمان والخشية والخوف من أهوال يوم القيامة ، وله تهجد عظيم بالليل ، لا يكاد يغيب عن شىء من المواكب الإلهية من حين العشاء إلى أن يطلع الفجر .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ عبد الرحمن الأجهورى ، وأجازه أشياخه بالفتوى والتدريس ، فدرس فى حياة أشياخه ، وأفتى وانتفع به خلائق .

وما رأيته قط يزاحم على شىء من أمور الدنيا ، ولم يتردد إلى بيوت أحد من الظلمة وأعوانهم ، بل لم يزل مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل ، محباً للخمول كارهاً للشهرة ، فأسال الله أن يزيده من فضله ، وأن يفسح فى أجله للمسلمين .

* * *

وقد ذكرت مناقب المالكية فى كتاب المفاخر والمآثر ، فراجعه .

وأما أصحابنا من علماء مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه فنهم الشيخ الإمام العالم

الشيخ ناصر الدين الطبلاوى

رضى الله تعالى عنه . صحبته نحو خمسين سنة فما رأيت فى أقرانه أكثر عبادة لله تعالى منه ، لا تكاد تراه إلا فى عبادة ، إما يقرأ القرآن ، وإما يصلى ، وإما يعلم الناس العلم . وانتهت إليه الرئاسة فى سائر العلوم بعد موت أقرانه . ولما دخلت مصر سنة إحدى عشر وتسعمائة كان رضى الله عنه مشهوراً فى مصر بكثرة رؤيته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عليه الخلائق إقبالا كثيراً بسبب ذلك ، فأشار عليه بعض الأولياء بإخفاء ذلك ، فأخفاه ، وليس فى مصر الآن أحد يقرأ فى سائر العلوم الشرعية وآلاتها[1] إلا هو فقط ، وأما غيره فيدرسها فى بعضها دون بعض .

وقد عدوا ذلك فى جملة كراماته ، فإنه من المتبحرين فى علم التفسير والقرآن والفقه والحديث والأصول والمعانى والبيان والحساب والمنطق وعلم الكلام وعلم التصوف ، وله الباع الطويل فى كل هذه العلوم ، وما رأيت فى مصر أحفظ لمنقول هذه العلوم منه ، فكأنها كلها نصب عينيه ، وشرح البهجة الوردية شرحين ما وضع مثليهما . جمع فيهما ما فى شرحى البهجة لشيخ الإسلام وزاد عليهما ما فى شرح الروض وغيره . وولى تدريس الخشابية . وهو من أجل تدريس فى مصر ، يجتمع فى درسه غالب طلبة العلم فى مصر ، وشهد له الخلائق بأنه أعلم من جميع أقرانه وأكثرهم تواضعاً ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم نفساً ، لا يكاد واحد يطلع عليها لكثرة إخفائه لها ، ولا يبيت على دينار ولا درهم ، مع كثرة دخله تبعاً لشيخه الشيخ زكريا .

---

(١) مثل علم المعانى والبيان والبديع والنحو والصرف .

وقد عاشرته مدة عشرين سنة أطالع أنا وإياه على شيخ الإسلام المذكور، فكنت أطالع من طلوع الشمس إلى الظهر، ويطالع هو من الظهر إلى غروب الشمس، فما كنت أظن أن أحداً فى مصر أكثر منه جلوساً، فكنت إذا نظرت إلى وجه الشيخ ناصر سررت، وإذا نظرت إلى وجه شيخ الإسلام سررت، وكان النهار الطويل يمضى كأنه لحظة من حسن أدبه وأدب شيخه، ومن حلاوة منطقهما، وكثرة فوائدهما، لاسيما فى علم التأليف والوضع، وضم الشكل إلى شكله، وتوطئة الألفاظ.

وبالجملة فأوصافه الجميلة تجل عن تصنيفى وتأليفى، كما يعرف ذلك من كشف الله تعالى عن بصيرته فى هضم نفسه، حتى كأن الله تعالى لم يجعل فى باطنه شيئاً من الأمراض الباطنة، ولا من الظاهرة من الأقوال الرديئة، فإنى ما سمعته قط يحسد أحداً من أقرانه، ولا يستغيب أحداً منهم، ولا رأيته قط يتكبر على أحد من المسلمين، بل يرى نفسه أحقر خلق الله عز وجل، يقبل يد الكبير ويد الصغير، ويطلب الدعاء منهم، وما زارنى قط وزرته إلا قال: ضع يدك على صدرى لعل الله يطهره من الأدناس، والناس عنده كلهم صالحون، لا يكاد يشهد فى أحد سوءاً أبداً.

ولما افترى بعض الناس الحسدة فى جامع الأزهر أننى ادعيت مقام الاجتهاد المطلق، وثارت فتنة عظيمة قال رضى الله عنه: إن ثبت ذلك عن عبد الوهاب فأنا أول من يقلده، ويعمل بمذهبه. وهذا تواضع عظيم ما سمعته من أحد من أهل عصرى؛ فإن الأشياخ أجمعوا على أن أعلى مقام فى التواضع لطالب العلم أن تسمح نفسه أن يقرأ العلم على أحد من أقرانه، فكيف بمن سمحت نفسه أن يقرأ العلم على شخص من طلبة أقرانه.

فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجله، وينفعنا به والمسلمين وببركاته وبركات علومه فى الدنيا والآخرة.

الشيخ عبد الحميد السمهودى

ومنهم الشيخ الإمام الكامل الراسخ فى العلوم الشرعية والمعقولات الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ عبد الحميد السمهودى رضى الله تعالى عنه . صحبته نيفاً وأربعين سنة فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل نشأ على العلم والأدب والعبادة والفتوة والكرم وحسن الخلق ، وما رأيت فى أقرانه أعف منه ، ولا أعز نفساً منه ، لا تراه يذل لأحد من الولاة ، ولا يزاحم على شىء من الدنيا ومكث مدة طويلة يتجر ويأكل من كسبه ، ويطعم فاضل كسبه للأصحاب والمترددين ، وتاجر فى طبخ السكر مدة ، ثم ترك ذلك وأقبل على العلم والعبادة والقناعة وملازمة بيته إلا لضرورة شرعية .

أخذ رضى الله عنه العلوم عن جملة من مشايخ الإسلام كالشيخ نور الدين المحلى ، والشيخ برهان الدين بن أبى شريف ، والشيخ عبد الحق السنباطى ، والشيخ ملا على العجمى ، والشيخ كمال الدين الطويل ، وتبحر فى العلوم ، وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس من نحو خمسين سنة ، وما رأيته قط يسىء الظن بأحد من المسلمين ، ولا يحسد أحداً منهم على مال أو إقبال من الخلق ، بل هو حافظ لسانه عن ذكر أحد بسوء بغير حق ، جميل المعاشرة ، مهيب المنظر ، يطعم الطعام لكل وارد عليه ، ولا يدخر عن ضيفه شيئاً من لطائف الطعام ، كثير العفو والصفح عن كل من جنى عليه ، لا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، لم يزل نور العلم طافحاً من ذلك الوجه المنير واللحية النيرة البيضاء ، ولو أنى أخذت أذكر أوصافه الجميلة لضاق عنها الدفاتر .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وأن يحشرنا فى زمرته . آمين . آمين . آمين .

الشيخ نجم الدين الغيطى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة ذو الأخلاق والأوصاف الجميلة والأخلاق المحمدية ، والشيم المرضية ، الشيخ نجم الدين الغيطى ، رضى الله عنه .

صحبته نيفاً وأربعين سنة إلى الآن ، فما رأيته ، وما وقع بصرى على شىء يشينه فى دينه ، بل نشأ على عفة وعلم وأدب وحياء وكرم نفس وحسن خلق .

أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبى شريف والشيخ عبد الحق السنباطى والشيخ كمال الدين الطويل والشيخ شهاب الدين الرملى ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فأفتى وأفتى فى حياة أشياخه بإذنهم ، وألقى الله محبته فى قلوب الخلق ، فلا يكرهه إلا محروم أو منافق .

انتهت إليه الرئاسة فى علم التفسير والحديث والتصوف ، ولم يزل آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، يواجه بذلك الأمراء والأكابر ، لايخاف فى الله لومة لائم .

ولما وقعت فتنة أخذ وظائف الناس بغير حق من بعض المفتين انتدب لها وواجه الباشات والأمراء بكلام لايقدر عليه أحد من أقرانه أن يتلفظ به ، وكان خمود الفتنة على يديه ، ووصل خبره إلى الروم والحجاز والشام ، وشكره المسلمون على ذلك .

وتولى مشيخة الصلاحية بجوار الإمام الشافعى ، ومشيخة الخانقاه الرناموسية ، وهما من أجل وظائف مشايخ الإسلام من غير سؤال منه . وأجمع أهل مصر على جلالته ، ومارأيته قط يغتاب أحداً من أقرانه ، ولاغيرهم وآذاه بعض الناس أشد الأذى فلم يقابله بكلمة واحدة ، فازداد بذلك هيبة ومحبة فى قلوب الناس ، وازداد عدوه مقتاً وطرداً وكراهة .

وكتب رضى الله عنه على بعض مؤلفاتى كتابة لم يسبق إليها أحد ، لأن هذا المؤلف جمعت فيه نحو ثلاثة آلاف علم إذا سمعه العالم أنكره ، ولا يكاد يصدق بتلك العلوم إلا إن رآه . ومارأيت فى أقرانه أكثر تواضعاً منه ، ومارأيت أحداً من أولياء مصر إلا وهو يحبه ويجله ، لاسيما الشيخ نور الدين لأنه كان من أصحاب الشيخ نور الدين الشونى . وله تهجد فى الليل وبكاء وتضرع وخشية من الله عز وجل ، حتى إنه يصبح فى بعض الليالى ووجهه يضىء كالكوكب الدرى ، يدرك ذلك من فى قلبه نور ، ولا يجهله إلا عدو أو حاسد .

ولما افترى علىّ بعض الحسدة أنى ادعيت الاجتهاد المطلق ، وأن أتباعى كثرت فى مصر ، وكتبوا بذلك ، وتصدى إلى باب السلطان ، وقال : إن لم تخرجوا عبدالوهاب من مصر وإلا خيف على المملكة . فانتصر لى رضى الله عنه ورد عنى الأعداء أشد الرد ، وقال : أما وقوع الاجتهاد ممن يدعيه فى كل عصر ، فهو ممكن ، ولا ينكره إلا جاهل ، فإن من شرط القاضى أن يكون مجتهداً ، وما شرط العلماء ذلك إلا لإمكانه فى كل عصر ، وأما كثرة أتباعه فلم تزل الفقراء لهم خلائق يعتقدونهم ، وأما خشية المنازعة المملكة فالحس يكذب هؤلاء الحسدة ، لأن الرجل لايمشى فى السوق إلا وحده ، وهو زاهد فى الدنيا تعرض عليه فيردها ، فكيف يتصور منه مزاحمة عليها ، وأجاب عنى بنحو خمسين جواباً .

ثم إن الذى حمل القصد إلى باب السلطان حصل له استسقاء ، ثم فالج ، ومات به ، وتمزق كيد الحسدة كل تمزق ببركة الشيخ نجم الدين رضى الله عنه ، فجزاه الله عنى خيراً وعن المسلمين ، وزاده علماً وعملاً وزهداً وورعاً وصلاحاً ، ولازال فى زيادة حتى يلقى الله وهو عنه راض . آمين اللهم آمين .

وكانت وفاة الشيخ نجم الدين نهار الأربعاء سابع عشر لصفر الخير سنة إحدى وثمانين وتسعمائة .

الشيخ نور الدين الطندتاوى

ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق الشيخ نور الدين الطندتاوى رضى الله عنه ، صحبته نحو سبعة وأربعين سنة فلم أر عليه شيئاً يشينه فى دينه ، وهو أول من صحبته بجامع الأزهر من أهله ، لم يذل لأحد من حين صحبته ، عاش على تقوى وصلاح وورع واشتغال بالعلم والعمل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، لايداهن أحداً .

وأخذ الطريق عن سيدى على المرصفى ، والشيخ محمد الشناوى وغيرهما . وأخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى حتى تبحر فى علوم الشريعة ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى جامع الأزهر فى حياة أشياخه ، (وكانوا)[1] يرسلون إليه الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب .

وكان الشيخ شهاب الدين الرملى يقول : تحقيق المسائل الواقعة فى الدرس للشيخ نور الدين الطندتاوى ، وجمع أشتات المسائل للشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى .

ورأيت رسول الله ﷺ فى حياة الشيخ نور الدين الشونى ، وشهد له رسول الله ﷺ بالتواضع ، وذلك أنى رأيت مقصورة الجامع الأزهر قد فرشت كلها بالحرير الأخضر ، حتى الحيطان والسقف والعمد ، ورأيت الشيخ نور الدين الشونى جالساً مع رسول الله ﷺ ، والشيخ نور الدين الطندتاوى

(١) سقطت من ب ، ج .

جالساً بجانب الشيخ نور الدين الشونى ، ورأيت الشيخ شهاب الدين البلقينى ، وجماعة مجلس الصلاة على النبى ﷺ جالسين بعيداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال شخص : يارسول الله ، ماسبب قرب هـذا منك ولم يـكن أكثرهم صلاة عليك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبب ذلك كثرة تواضعه وهضم نفسه .

وكان شيخنا الشيخ نور الدين رحمـه الله يحب الشيخ الطندتاوى ويجله ويـكرمه أكثر من سائر أصحابه وأقرانه حتى كأنه ولده البار بوالديه ، وكان الشيخ محمد الشناوى شيخنا يحبه ويصفه بصفاء السريرة ، وعـدم محبته الدنيا ويقول : إن الشيخ نور الدين الطندتاوى من أجل أصحابنا وإخواننا وأكثرهم تواضعاً ، ويصفه بعدم الحسد والغل والحقد والـكبر والرياء والنفاق وكأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئاً من أمراض الطريق[1] .

ولما افترى علىّ بعض الحسدة أننى ادعيت الاجتهاد المطلق ، وكان غالب أصحابى يتـكلمون فى عرضى إلا هو وبعض المتورعين من طلبة العلم ، وكذلك لما دس بعض الحسدة فى مؤلفاتى كلمات تخالف ظاهر الـكتاب والسنة بادر غالب النـاس إلى الـكلام فى عرضى إلا هو والشيخ شمس الدين الخطيب وبعض جماعة . فجزاه الله عنى وعن المسلمين خيراً ، فلم يزل يحمل الناس على أحسن المحامل ويقول إذا بلغوه عن أحد كلاما غير مرضى ، هذا كذب على فلان ، وحاشا فلان أن ينطق بذلك[2] .

---

(١) يريد طريق الصوفية ، ومن أهم أمراضة : الرياء والـكبر والحسد والدعوى وغيرها .

(٢) ليس معنى هذا أن يسكت على خطأ ولـكن كان يدافع عن العلماء العاملين مادس عليهم .

وأعطاه محمد بن بغداد مالا جزيلا لحضرته فلم يقبله ، فقلت له : فرقه على الأيتام ومجاورى الجامع الأزهر ، ففعل .

وماسمعته مدة صحبته لى يذكر أحداً من المسلمين بسوء ولايحسد أحداً من أقرانه على وظيفة حصلت له . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله . آمين .

الشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى

ومنهم الأخ الصالح العامل المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً الشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى رضى الله عنه . صحبته نحو أربعين سنة مارأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، ولم أر فى أقرانه مثله فى حفظ الجوارح ، وغفلته فى السعى على الدنيا وظائفها ، ومضايقة أهلها ، ولم يزل مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل به وتعليمه للناس ، لاتجده إلا فى مطالعة علم أو صلاة أو قراءة أو صامتاً ، يتفكر فى أهوال يوم القيامة ، وله تهجد فى الليل ، وصيام كثير فى النهار ، ولم أسمعه مدة صحبتى له يذكر أحداً من أقرانه بسوء ، ولا يحسد أحداً منهم على ما آتاه الله تعالى من علم أو مال أو إقبال من الأكابر ، ولاغير ذلك من رعونات النفوس ، ومارأيت من أقرانه أكثر اعتكافاً منه فى رمضان وغيره ، ومن عادته أن يدخل الجامع الأزهر أول ليلة الصيام فلا يخرج إلا بعد صلاة العيد .

وقد أخبرنى ولده سيدى عبد الرحمن أنه لايتعشى دائماً فى رمضان إلا بعد صلاة التراويح ، فيأكل لقيمات يسيرة ، ويشرب ماء كثيراً ، وحججت معه حجتين ، فما رأيت أحداً فى أقرانه أكثر مشياً منه ، فلا يركب إلا بعد تعب شديد ، ويعزم عليه الجمال أن يركب فيأبى رحمة بالجمل .

ورأيت شخصاً سميناً من طلبة العلم اشتكى جماله لأمير الحج الذى قال له :

امش شيئاً من الجمل فى الأرض . فبان الصدق بين الرجلين، مع أن هذا السمين لا يعده الشيخ شمس الدين أنه يصلح أن يكون من طلبته .

ولم يزل من حين يخرج من بركة الحاج يعلم الناس المناسك وآداب الطريق وكيفية القصر والجمع ، ويحثهم على الصلاة ، وربما يعطى السائل عشاءه ويطوى تلك الليلة ، وكان غالب سفر الحج ومدة إقامته بمكة صائماً لا يفطر فى غالب لياليه ، يكتفى بشرب الماء من زمزم ، ومارأيت أكثر تلاوة للقرآن منه ، ولا أكثر طوافا مدة إقامته بمكة ، وطلبت يوماً أن أساويه فلم أقدر على ذلك .

وأما خشوعه وتدبره فى القرآن فغريب فى أهل مصر ، وكذلك حبه للخمول وعدم الشهرة مدة إقامته بمكة ، فلا يكاد واحد يعرفه . لا يحرم إلا وحده ، ويجلس بين الفقراء الذين لا يعبأ بهم فلا يكاد أحد يعرفه إلا بجهد . وغالب من يحج من طلبة العلم ربما يكون بالضد من ذلك ، فيود أن أهل مكة يعرفونه ، ويبدى لهم العلوم الغريبة ، ويجد فى نفسه حلاوة من ذلك ، وبعضهم يخرج من مكة ممقوتاً لريائه ونفاقه فى حضرة الله تعالى الخاصة .

وقد رأيت من يدعى الصلاح يصرخ فى مكة بأنه أعلم من فى مصر والشام والروم ، وبلغه أن الشريف عزم على زيارتى ، فلم يزل يتوسل إليه حتى ترك زيارتى خوفاً أن يميل عنه إلى كثرة نصبى وحيلى ، فضحكت من ذلك ، فإن من قواعد طريقتنا أنى لا أمكن أحداً من الأكابر أن يأتى إلىّ ، وإن علمت عزمه على زيارتى ذهبت إليه أنا ، والحمد لله رب العالمين .

أخذ الشيخ شمس الدين العلم عن جماعة من علماء مصر ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ جمال الدين الصانى ، والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، وتبحر فى العلوم على أيديهم ، وأجازوه بالإفتاء

والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه وانتفع به خلائق لا يحصون . وأجمع أهل مصر على دينه وصلاحه ، ووصفوه بالعلم والعمل والزهد ، وكثرة النسك والعبادة . وشرح كتاب منهاج الفقه ، وكتاب التنبيه شرحين عظيمين ، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد الشيخ زكريا ، وأقبل الخلائق على كتابتهما وقراءتهما عليه ، ومارأيته قط يسعى على شىء من أمور الدنيا ، ولا على شىء فيه رئاسة ، ولا يزاحم أحداً على صحبة أحد من الولاة والقضاة ، بل ربما لا يعرف أحداً منهم .

وتفضل علىّ بزيارتى مالا أحصى له عدداً ، ولما عجزت عن مكافأته علمت أن الله تعالى أراد أن يكون له التفضل علىّ ، ومارأيت أخف زيارة منه ، ولا أكثر أدبا ، ومادق على الباب قط ، بل يقف على الباب ساعة ، فإن لم يفتح له أحد رجع وقرأ الفاتحة منشرحاً غير متأثر من ذلك . وقل أن يقع مثل ذلك من طلبة العلم ، بل يدق بعضهم على الباب ، فإن لم يجبه أحد سب ، ولا خلى ولا أبقى ، وحلق على أسوأ المحامل وأشرها ، وربما دخل على غضباً ، ويرى له الفضل على ، فلا يخرج من عندى حتى أصير كأنى شربت رطلا من السم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد باسطت الشيخ شمس الدين الخطيب يوماً فقلت له : كيف تجىء لمثلى ، فلا يفتح لك ولا تتكدر ؟ فقال : قد قال الله تعالى : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم » كيف أتغير من حضوله لى ؟ فقلت : جزاك الله عن إخوانك خيراً .

وبالجملة فأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفى ، فأسأله تعالى أن يزيده من فضله ، ويحشرنا فى زمرته مع العلماء العاملين . آمين اللهم آمين .

الشيخ أبو البقاء بن جبيلات

ومنهم الشيخ الصالح العالم الورع الزاهد أبو البقاء بن جبيلات القاضي بجامع الصالح صحبته نحو خمسين سنة فما رأيته زاغ عن الشريعة المحمدية بل نشأ في فقه وعبادة وورع وزهد وتلاوة قرآن وعلم .

أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف ، والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ سعد الدين الذهبي والشيخ عبد الحق السنباطي ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، تولى القضاء بإشارة بعض الأولياء ، فكلما عزل نفسه تعيده الولاة إلى القضاء ويسلم الأمر إلى الله تعالى ، وأجمع الناس على أنه ليس في مصر الآن مثله ، ولا مثل محب الدين المالكي في الدين والورع ، وقدموه على جميع أقرانه وقالا : إن القضاء يتحتم على مثله لما علموه من شدة دينه وعدم قبوله الرشوة من أحد مطلقاً لا سراً ولا جهراً ، هذا على كثرة ضبط جوارحه عن المخالفات ، وكثرة تلاوة القرآن في المصحف نهاراً وليلا في التهجد ، وما ضبطوا عليه قط أنه حسد أحداً ولا ذكره بسوء ولا زاحم على شيء من مناصب الدنيا .

وأخبرني من يخالطه بالليل أنه لم ينم من الليل إلا قليلا ، ثم يقوم في دهليز داره . وأخبرني المقدم أحمد الكافوري قال : مامررت قط مع الوالي في الليل إلا وجدت الشيخ أبا البقاء يتلو القرآن خلف باب داره .

ومما يؤيد ذلك أنني لم أزل أرى الشيخ أبا البقاء ساكناً في قبة عظيمة وسط تربة واسعة . فأول ذلك بحياته وموت جيرانه ، لقيامه بالليل وكثرة نومهم . وأخبرني الشيخ شهاب الدين بن مخالطة صهره أنهم ما ضبطوا عليه قط أنه نام عنه عياله بالليل سوى لحظة واحدة .

ولما حججت سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة قال لي أخي سيدي محمد الحنفي الشاذلي : أرادنا أن نجتمع بأحد من الأولياء بمكة ؟ فقلت له : إن هذه حضرة الله الكبرى ، فلا يكاد أحد يظهر فيها ، ولكن نسأل الله تعالى أن يطلعنا في هذه الليلة على أحد ممن اصطفاه لحضرته في هذا الزمان ، ولا يعلم بنفسه ، وكنا في الحجر تحت الميزاب في ليلة مقمرة فتواطأت رؤيتي بين النائم واليقظان ، إذ دخل علىّ إثنا عشر رجلا من فتحتى الحجر الغربية ، وأمامهم شخص طويل القامة ينادى بأعلى صوته : هؤلاء الإثنا عشر رجلا ممن اصطفاهم الله لحضرته ، ولا يعلمون بأنفسهم ، وكان أول داخل منهم الشيخ أبو البقاء هذا ، ثم الشيخ حسن الحديدى بجامع الأزهر ثم الشيخ عبد القادر ، ثم الشيخ مبارك بسوق اللوق ، ثم بقية الجماعة .

فعلمنا بهذه الرؤية مقامه في الولاية الكبرى . وعزل نفسه من القضاء فأخبرت بذلك سيدى على الخواص رحمه الله تعالى فقال لى : كله يطلب القضاء بمحكمة جامع الصالح ، لقربهما من بيت الوالي ، ليصير يلاطف أرباب التهم والجرائم ، فإن بيت الوالي قطعة من نار جهنم ، وأنت جعلك الله رحمة . فسمع من الشيخ ، فلم يزل فيها إلى وقتنا هذا .

وعزله بعض قضاة العساكر لما قالوا له : إن أمره مشغول بالعبادة ويفرط في المحصول ، فوقف أهل مصر للباشا محمد ، ومالوا في رده القضاء ففعل . وقالوا له : يا مولانا ليس في بلدك كلها مثله .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علماً وعملا ، وزهداً وورعا وخشية منه تعالى حتى يلقاه وهو راض عنه .

الشيخ محمد بن شهاب الدين الرملي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق صاحب العلوم المحررة والأخلاق الحسنة ، والأعمال المرضية ، سيدى محمد ، ولد شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي .

صحبته من حين كنت أحمله على كتفى إلى وقتنا هـذا ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، ولا كان يلعب فى صـغره مع الأطفال ، بل نشـأ على الدين والتقوى والصيانة وحفظ الجوارح ونقاء العرض .

رباه والده فأحسن تربيتهعلى زيادة التوفيقمن الله عز وجل . ولما كنت أحمله على كتفى وأنا أقرأ على والده العلم فى المدرسة الناصرية كنت أرى عليه لوامح الصلاح والتقوى والتوفيق ، وحقق الله تعالى رجاءنا فيه ، وأقر عين المحبين ، فإنه الآن مرجع أهـل مصر فى تحرير الفتاوى . وأجمعوا على دينه وصلاحه وورعه وحسنخلقه ، وكرم نفسه، ولميزل بحمد اللهفىزيادة منذلك .

أخذ رضى الله عنه العلم عن والده فأغناه عن كثرة التردد والتطفل على غيره ، وبث فيه ما كان عنده من الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والمعانى والبيان وغير ذلك .

وكانت بدايته كما قيل نهاية أبيه ، وقد أجمع القوم على أن المريد إذا صح اعتقاده فى شيخه وقبل كلامه بالإيمـان والتسليم فقد ساواه فى العلم ، وما بقى لمعلمه عليه إلا مقام الإفاضة عليه من علومه [1] .

وقد بث فيه والده جميع ما كان عنده من تحريرات العلوم ، ولما مات والده وجلس يدرس فى الجامع الأزهر بعده أبدى لعلماء الجامع الأزهر من علوم والده العجب العجاب ، وما تخلف عن درسه إلا من جهل مقداره أو عمه الحسد والمقت .

---

(١) الإفاضة تكون بتجاوب متبادل بين المريد والشيخ فهى من المريد توجه كامل ، وحينئذ تنطبع كل علوم الشيخ فى القلب المتوجه .

وقد بلغنى أن بعض أصحاب الأنفس صار يرسل بعض طلبته يكتب من سيدى محمد ما يتكلم به من المسائل المتناقضة ، ويكتب له ما يمشى عليه من الترجيح ، ثم يصير يلقى ذلك فى درسه ويفتى به ، ولو أن هذا حضر (حلقة) سيدى محمد لحصل له خير كثير . ولذلك قالوا لا ينال العلم مستحيى ولا متكبر كما قال الإمام الشافعى : لا ينال هـذا العـلم بالغنى وعز النفس ، وإنما ينال بالفقر وذل النفس .

وسمعت من بعض طلبة والده أنه سمع والده يقول : تركت محمداً بحمد الله لا يحتاج إلى أحد من علماء مصر إلا فى النادر .

ولم يزل رضى الله عنه له الاعتقاد التام فى طائفة الصوفية تبعاً لوالده ، يجيب فيهم بأحسن جواب . وطالع كتابى «العهود» من أوله إلى آخره ، وكذلك أسماء علوم القرآن ، وهى ثلاثة آلاف علم . فقدم إليه بعض الحسدة سؤالا من مضمونه : أنى ادعيت الاجتهاد المطلق ، فبادر بعض الناس وأنكر بلوغ أحد فى هذا الزمان إلى مثل ذلك ، وتوقف الشيخ وقال : ائتونى بالكتاب الذى فيه ذلك ، أو بينة عادلة .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين .

توفى الشيخ محمد المذكور ، فى يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى سنة أربعة بعد الألف .

الشيخ محمد البكرى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الراسخ فى العلوم اللدنية ، والفتح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدى محمد البكرى ، وشهرته تغنى عن تعريفه ، وماذا يقول القائل فى حق من أفرغ عليه العلوم إفراغاً لم يصح لأحد من أهل عصره فيما

نعلم . فالناس أجمعوا على أنه ليس على وجه الأرض أكثر علماً منه ولا فى غير مصر مثله ، فلا ينكر فضله إلا من عمه المقت والحسد . وقد أعطاه الله تعالى التكلم على أحوال السماوات والأرض نقلا وكشفاً ويقيناً لا ظناً وتخميناً . وهو جدير بقول بعضهم :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

واجتمعت به مرات ، فما رأيت أوسع منه خلقاً ، ولا أكرم نفساً ، ولا أجمل معاشرة ولا أحلى منطقاً .

درس وأفتى فى علم الظاهر والباطن ، وأجمع أهل الأمصار على جلالته ، ونشأ رضى الله عنه كنشأة والده على التقوى والورع والزهد وعزة النفس حتى أتته الدنيا وهى راغمة . وأعرف من مناقبه مالا يقدر الأقران على سماعه ، ولكن سيظهر ذلك فى الدار الآخرة ، فإنه بكرى بيقين ، وأبو بكر لايفارق رسول الله ﷺ كما لا يفارق الظل الشاخص ومن كان من رسول الله ﷺ من منزلة لا تحصى مناقبه . ومما يدل على صحة نسبه إلى الإمام أبى بكر الصديق ما رأيته بمكة المشرفة .

وذلك أن بعض الحسدة ذكر سيدى محمد بنسبة فزجرته عن ذلك فلم ينزجر ، ثم رأيت الإم أبا بكر رضى الله عنه وهو يقول لى : جزاك الله عن ولدى خيراً . فعلمت صحة نسبه بذلك .

وكذلك وقع أن شخصاً ذكرنى بسوء فى حضرة الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه وهو ساكت ، فعتبت عليه فى نفسى ، فرأيت الإمام أبا بكر رضى الله عنه وهو يقول لى : استغفر الله تعالى عن ولدى رضى الله عنه .

الشيخ نور الدين بن أبى الطباخ

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الورع الزاهد الخاشع الخائف من الله عز وجل الشيخ نور الدين بن أبى الطباخ الشافعى .

صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت أحداً أكثر اطلاعاً على مذهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم منه ، وله فى ذلك من الحوادث من المسائل مؤلفات جيدة تذكر فى مؤلف من النقول ما تقر به العيون ورأيت فهرسها كراساً كاملا ، وله الباع الطويل فى علم الأصول ، لا سيما علم الكلام ، فإنه أشعرى زمانه فيها .

أخذ رضى الله عنه العلوم عن شيخ الإسلام زكريا ، وعن شيخ الإسلام برهان الدين بن أبى شريف وعن شيخ الإسلام كمال الدين الطويل ، وعن الشيخ شرف الدين بن زرون وغيرهم .

وأخذ طريق القوم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين المرصفى ، والشيخ أبو السعود الجارحى وغيرهما ، وله فى الطريق وقائع عظيمة تؤذن بكماله فيها وبلوغه مبلغ الرجال . وأخبرنى أنه كوشف بمقدار علمه ، وله حرص عظيم على إفادة من يجده من أهله أهلا لها ، فإن لم يجد من هو أهل لذلك كتمه عنه .

وأخبرنى عن الشيخ شهاب الدين الأذرعى من أكابر الشافعية أنه كان كذلك وربما قام من مجلس المناظرة مغلوباً وهو يعرف المسألة التى يقطع بها الخصم ، إذا لم يجد الخصم لها أهلا .

ومن خلقه قبول الفائدة ممن لا يصلح تلميذاً له ، ثم يصير ينشر ذلك عنه ، ويقول : أفادنى فلان كيت وكيت ، حتى ربما كنت أذكر له فائدة من كلام القوم . فيقول : اكتبها لى ، فأفعل ، ثم يقرأها ويقول : هذا كلام فلان يكتب بماء حدق العيون .

ومن خلقه محبة الخمول وعدم التظاهر بالأعمال الصالحة حتى يظن طلبته وغالب الناس أنه جاهل .

وكان الشيخ أبو المواهب الشاذلى يقول : إذا بلغ العارف الكمال فى العرفان صار غريباً فى الأكوان ، لا يعرفه إلا من أشرف على مقامه ، وقليل ماهم . ثم قال :

وما غربة الأوطان فى شقة النوى ولكنها والله فى عدم الشكل

فأسأل الله تعالى من فضله أن ينفعنى ببركاته فى الدنيا والآخرة .

الشيخ شمس الدين العلقمى

ومنهم الشيخ الصالح الإمام العالم العلامة الورع الزاهد الخاشع المهيب الشيخ شمس الدين العلقمى الشافعى رضى الله تعالى عنه .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ ناصر الدين اللقانى وغيرهما ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، فدرس وأفتى بجامع الأزهر وغيره ، وانتفع به جماعة كثيرة فى تحقيق العلوم الشرعية والعقلية ، وله الاعتقاد التام فى أهل الطريق ، ويجيب عنهم بأحسن جواب لمن لا يفهم كلامهم ، وله عدة مؤلفات منها ملتقى البحرين جمع فيه كلام الشيخين رضى الله عنهما .

صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، قوالا بالحق ناهياً عن المنكر ، ويواجه بذلك الأكابر والأصاغر ، لا يخاف فى الله لومة لائم ، وربما اجتمع عليه خلائق وتعصبوا عليه بالباطل ، فنصره الله عليهم ، وله توجه عظيم فى قضاء حوائج إخوانه إذا أصاب أحداً منهم بلاء ، لا يتهنأ بنوم ولا عيش حتى يزول ذلك البلاء .

ما سمعته يذكر أحداً من أقرانه إلا بخير ، وعمر عدة جوامع فى بلاد الريف ، ورتب لها الشعائر وما رأيته قط يزاحم أحداً من أقرانه على دنيا أوجاه أو صيت ، وله تهجد عظيم فى الليل ، ومناقبه رضى الله عنه كثيرة .

الشيخ شمس الدين الصفدى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح النحوى الصوفى الشيخ شمس الدين الصفدى المقدسى الواعظ بالجامع الأزهر وغيره .

صحبته نحو ثلاثين سنة من حين كان شاباً ، لم يزل من صغره يحب العزلة عن الناس ، مشتغلا بالعلم والعمل ، حافظاً لسانه ، مقبلا على شأنه ، حتى تبحر فى العلوم الشرعية والعقلية ، وطلب طريق القوم . فاجتمع على سيدى محمد بن عراق[1] وأقبل عليه إقبالا عظيما ، وفرح به أشد الفرح ، ولم يلتفت إلى الدنيا ولا إلى مناصبها من حين كان صغيراً إلى وقتنا هذا .

ومارأيته يذكر أحداً بسوء من المسلمين ، ومجالس وعظه كلها خير وبركة وخشوع وأدب ، وتغشىٰ الرحمة جميع من حضر فيها . ومارأيته قط يتردد إلى أحد من الولاة والأكابر ، ولايتعرف إلى من لايعرفه ، وله درس عظيم فى الجامع الأزهر وغيره ، وانتفع به خلائق ، فأسأل الله تعالى أن ينفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة .

الشيخ ناصر الدين الدمنهورى

ومنهم الأخ الصالح العالم العلامة القائم فى دين الله تعالى بالتأييد ، لاتأخذه فى الله لومة لائم ، المهاجر بأولاده وعياله فى طلب الزيادة من العلم ، الشيخ ناصر الدين الدمنهورى .

وما رأيت فى عصرنا هذا قط من مهاجر من بلاد فى طلب العلم هو وأولاده غيره ، وله حرص على اتباع السنة منه ، وصدق والله من لقبه بناصر الدين ، فإنه يكاد يتميز من الغيظ إذا رأى أحداً يخالف السنة فى قوله أو فعله ، وقام

---

(١) هو صاحب كتاب تنزيه الشريعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة .

فى هدم الكنيستين فى ناحية « لقانة » وبلده حتى هدمهما . وعارضه فى ذلك جمع من الولاة ، وخذلهم الله تعالى ونصره عليهم .

ومارأيت مثله فى القيام بحق الأخوة والصحبة والضيوف والواردين عليه فى بيته لأن بيته مورد العام والخاص .

أفتى ودرس العلم ببلاده ، وانتفع به خلائق ثم وصل إلى مصر بقصد الزيادة من العلم ومارأيته قط يأكل طعام أحد من الولاة وأعوانهم . وله تهجد عظيم وأوراد عظيمة كثيرة فى الليل ، جميل المعاشرة ، حلو اللسان ، كثير الحياء والأدب ، لا يكاد يرفع صوته فى وجه جليسه .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وينفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة .

الشيخ شهاب الدين الطريقى

ومنهم الأخ الصالح العالم العلامة الكامل الورع الزاهد الشيخ شهاب الدين الطريقى الشافعى رضى الله عنه . نشأ رضى الله عنه على العفة والزهد فى الدنيا والورع والتخلق بالأخلاق المحمدية الحسنة ، والتلبس بالشيم المرضية .

صحبته من مبذ كان صغيراً ، فما رأيته أعرض عن الاشتغال بالعلم والأدب ، ودخل مصر وأنا رجل أطالع فى شرح الروض وغيره ، فتعلم الخط ، وحفظ القرآن والبهجة من مدة يسيرة ، وشرع فى شرح ذلك على الأشياخ ، ففتح الله تعالى عليه فتوحاً عظيما ، حتى صار يدرس العلم لأمثالى ويفيدهم الترجيحات .

فالله تعالى يزيده من فضله .

ومن جملة من أخذ عنهم العلم الشيخ شمس الدين الدواخلى وشيخ الإسلام كمال الدين الطويل ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ ناصر الدين اللقانى ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، ودرس وأفتى فى حياة أشياخه ، وانتفع به خلائق لا يحصون فى جامع الغمرى وغيره .

ومن حين صحبته ما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل لم يزل على المروءة والنهضة والهمة وقضاء حوائج الناس ، ويقدمها على مهمات نفسه حتى إنه سافر إلى المحلة الكبرى فى قضاء حوائج الفقراء ، ويتعصب لهم فى الخير ، ويعين الفقراء على التزويج ووفاء الديون ، وله أعمال سرِّيَّة لا يطلع عليها أحد إلا الله عز وجل . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين .

الشيخ شمس الدين الطنيخى

ومنهم الشيخ الإمام الأخ الصالح العالم العلامة المجمع على جلالة وكثرة نفعه العباد حتى كأن سداه ولحمته خير الشيخ شمس الدين الطنيخى الشافعى ، رضى الله عنه من حين كان بلا لحية حتى شاب فما رأيت إلى الآن عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل ربى على التقى والطهارة الظاهرة والباطنة ، وتخلق بالأخلاق الحسنة ، ولم يزل من صغره إلى الآن حافظاً لسانه مقبلا على شأنه ، معظماً لإخوانه ، كريم النفس ، كثير الحياء والأدب ، زاهداً ورعاً خاشعاً خائفاً من الله عز وجل ، يبكى إذا سمع بأحوال الصالحين .

وما رأيته قط يزاحم على شىء من وظائف الدنيا ، ولا يتردد إلى أحد من أهلها إلا لضرورة شرعية ، وما سمعته قط يذكر أحداً من المسلمين بسوء .

أخذ رضى الله عنه العلم عن جماعة من الأكابر ، منهم : الشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، فدرس وأفتى وانتفع به خلائق .

وكان والده الشيخ محمود عبداً صالحاً من أهل القرآن والخير ، وذريته بعضها من بعض ، وله ولد صالح اسمه عبد الرحمن نشأ على خير وتقوى وكمال وعلم وعمل وقرأ علىّ كتاب السنن الكبرى للبيهقى . فأسأل الله تعالى من فضله أن

يرفعه إلى مقدار والده وزيادة ، وأن ينفعنا ببركاته وبركات والده ، في الدنيا والآخرة .

الشيخ نور الدين القبيلي

ومنهم الشيخ الإمام العلامة المفتي في العلوم النقلية والعقلية الشيخ نور الدين القبيلي ، صحبته نحو عشر سنين فرأيته على جانب عظيم من الخشية لله تعالى والبكاء عند سماع القرآن والمواعظ ، وله تهجد عظيم في الليل ، وأوراد لا يطلع عليها إلا الله تعالى ، ثم أهل الكشف ، وربما تهجد بنصف القرآن وأكثر في ركعة واحدة كما أخبرني بذلك بعض الصالحين ، فازددت فيه محبة .

وله حاشية عظيمة على كتاب المغني ، وله الباع الطويل في علم الكلام والعقائد ، والغالب عليه أحوال الصالحين اللامتية[1] ، فلا يكاد واحد يعرف له مقاماً ، لأن أعماله قلبية وسرية ، وقلبه طواف بحضرة الله تعالى ، حتى ربما ذهل عن جليسه .

ولولا حجاب المفاخرة على قلوب إخوانه لأبديت من أخلاقه عجباً . ولكن يكفينا من أعماله الكرم وحسن الخلق ، وكثرة الحياء والأدب ومحبة الصالحين وحسن اعتقاده فيهم ، وكف جوارحه عن المخالفات ، فالله يزيده من فضله أبداً ما عاش آمين .

الشيخ شهاب الدين بن حجر

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق الصالح الناسك الشيخ شهاب

---

(١) الملامتية قوم من الصوفية يرتكبون أعمالا مباحة منفرة ، ولينفضّ الناس من حولهم ويتمتعون بالعزلة مع الله تعالى . وليس منهم من يرتكب أفعالا محرمة .

الدين بن حجر الشافعى ، نزيل الحرم المكى .

أخذ العلم عن مشايخ الإسلام بمصر والحجاز ، وانتفع به خلائق لا يحصون ، وهو أحد شهودى على الشيخ محمد الشنشاوى فى إذنه لى بتربية المريدين وتلقينهم الذكر .

صحبته رضى الله عنه نحو أربعين سنة فما رأيته قط أعرض عن الاشتغال بالعلم والعمل . صنف رضى الله عنه عدة كتب نافعة محررة فى الفقه والأصول والمعقولات . واختصر كتاب الروض لابن المقرى وشرحه شرحاً عظيما جمع فيه من الفوائد مالا يوجد فى كتب شيخ الإسلام زكريا ولا غيره ، حتى عارضه بعض الحسدة فسرقه ورماه فى الماء كما قيل ، فاستأنف الشرح ثانياً وكمله ، وشرح الإرشاد شرحين عظيمين ، وانتفع به خلائق فى مصر والحجاز واليمن وغير ذلك : وهو مفتى الحجاز الآن ، يقفون كلهم عند قوله .

وله أعمال عظيمة لا يطلع عليها إلا من كان خلياً من الحسد ، ومن صغره إلى الآن لم يزاحم على شىء من أمور الدنيا ، ولا تردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، وينفعنا ببركاته فى الدنيا والآخرة .

الشيخ شمس الدين الفرضى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الفقيه : شمس الدين الفرضى السنهورى الشافعى صحبته نحو عشرين سنة فما رأيته على بدعة ولا جالساً على حدث ، وهو دائم التهجد فى الليل بربع القرآن ، وله اليد الطولى فى علم الفرائض والحساب . وشرح الترمذى شرحاً فى مجلدين ، وله النظم الشائع .

أخذ العلم عن مشايخ الإسلام ، وأجازوه بالفتوى والتدريس . منهم شيخ

الإسلام زكريا ، وشيخ الإسلام كمال الدين الطويل ، وعليه المعول الآن فى العربية وفى الفتوى ، وله خلق عظيم واحتمال للأذى وقناعة ، وأكثر أيامه صائماً لا يفطر ، وما دعوته قط لطعام إلا وجدته صائماً ، وما رأيت فى أقرانه أكرم منه نفساً ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ، ويحشرنا فى زمرته .

الشيخ كمال الدين بن الموقع

ومنهم الشيخ الإمام العالم الزاهد المقبل على عبادة ربه ، المعتزل عن الناس فى بيته امتثالا لأمر الشارع فى ذلك كمال الدين بن الموقع .

صحبته نحو ثلاثين سنة فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، والغالب عليه الصمت . أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، وصحب الشيخ أبا الحسن البكرى ، وتخرج فى علم التصوف ، وتبحر فى علم الأصول والتفسير والقراءات والنحو والمعانى والبيان ، وله عدة مؤلفات فى هذه العلوم . وأجازه العلماء بالفتوى والتدريس ، فدرس العلم مدة ثم انقطع فى بيته للعبادة .

وما سمعته يذكر أحداً بسوء ، ولا رأيته يتردد إلى أحد من الولاة وأبناء الدنيا ، ولا يزاحم على شىء من مناصبها . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين .

الشيخ تقى الدين الأشمونى الأقطع

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ تقى الدين الأشمونى الأقطع الشافعى .

أخذ العلم عن الشيخ برهان الدين بن أبى شريف ، وعن الشيخ جلال الدين السيوطى وغيرهما ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ببلاد الأشمونية ، فدرس فيها

وأفتى ، ثم قدم مصر واستوطنها ، ودرس فى المدرسة الخلقانية ، نيابة عن الشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، وفى جامع ابن طولون ، وفى جامع يونس خارج قناطر السباع ، وأفاد الطلبة علوماً جمة .

صحبته رضى الله عنه نحو عشرين سنة إلى وقتنا هذا ، فرأيته يحفظ نقول مذهب الإمام الشافعى عن ظهر قلب ، وكان رضى الله عنه فى غاية الزهد والورع والخشية من الله عز وجل لا يكاد يسمع شيئاً من القرآن ، أو شيئاً من أحوال السلف الصالح إلا ويبكى ، ولبس من ثيابى جبة وقميصاً وقلنسوة تفضلا منه ، وقطعت يده ظلماً فى أيام « خاير بك » ملك الأمراء فى قصة طويلة رضى الله عنه وحشرنا فى زمرته . آمين .

الشيخ جمال الدين بن زكريا الأنصارى

ومنهم الشيخ العالم الصالح الزاهد الشيخ جمال الدين ، ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصارى رضى الله عنه .

أجمع الناس على صلاحه وزهده وورعه ، ومارأيت أصبر على الوحدة منه، صحبته نحو أربعين سنة فلم أره قط مشتغلا بما لا يعنيه فى وقت من الأوقات ، بل طول نهاره وليله كان مشتغلا بالعبادة ، إما تلاوة قرآن أو علم أو تفسير أو قراءة أوراد أو صامت أو مراقب متفكر فى أمر معاده .

وقد ربى فى نزاهة وطاعة وعدم خروج عن دائرة والده . وقد اجتمعت به بعد أن دارت لحيته فقال : طول عمرى ما خرجت من الدار ، ومقصودى أنظر ما بين القصرين وباب زويلة . فقلت : إن شاء الله تعالى يشرب الشيخ الدواء وأمشى معك إلى ما ذكرت .

ثم إن الشيخ كان لا ينفك عن مطالعة العلم والتأليف يوماً واحداً من حين كف بصره ، فمرض الشيخ وشرب دواء وخرجت معه إلى ما طلب ، فرأى الكنافة ، فقال : ما كنت أظن أن الكنافة تعمل إلا في رمضان .

ثم قال لى : مرادى أرى البحر ، فإن عمرى ما رأيت البحر ولا المراكب فخرجت لما مرض الشيخ ثانى مرة فصار يتعجب أشد العجب ، ثم بعد موت والده لازم خلوة والده فى النهار ، فلا يركب إلا لزيارة والده أو للبيت ، ولا يتردد لأحد مطلقاً .

وهو ممن جمله الله على الأخلاق المحمدية وضبط الجوارح ، حتى إن كاتب الشمال فى ظنى لا يجد شيئاً يكتبه عليه فى ليل ولا نهار ، لكثرة حضوره مع الله تعالى ، وكثرة خوفه .

ودرس العلم بالمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعى ، رضى الله تعالى عنه وبالجملة فأخلاقه وصفاته الجميلة لا تحصى رضى الله عنه .

وحضرت أنا وإياه على والده شرح على رسالة القشيرى فى التصوف ، وكتاب آداب القضاء ، وأدب البحث ، وشرحه التحرير وغير ذلك ، رضى الله عنه ، ولطف به ، آمين اللهم آمين .

الشيخ شهاب الدين الشنشورى

ومنهم الشيخ الصالح الشيخ شهاب الدين الشنشورى الشافعى رضى الله عنه ، صحبته نحو عشر سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، وأعماله السرية أكثر من أعماله الجهرية . ودرس العلم بالجامع الأزهر وغيره . والغالب عليه محبة الخفاء ، وما رأيته قط يذكر أحداً من أبناء الدنيا إلا لضرورة .

وما رأيته قط يذكر أحداً من المسلمين بسوء ولا يغتابه ولا يزاحم على

شيء من الدنيا ، ولما كنت أسهر فى الجامع الأزهر فى رباقة الليل فأجده إما مصلياً وإما قارئاً ، وإما يطالع العلم ، وإما جالساً واضعاً رأسه فى طوقه ، فكان يعجبنى حاله وحال الشيخ شمس الدين الترجمان ، وحاول الشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، وما رأيت أكثر اشتغالا منه ، فأسأل الله أن يزيده من فضله .

الشيخ شمس الدين النبتيتى

ومنهم الشيخ الصالح الورع الشيخ شمس الدين النبتيتى الشافعى رضى الله عنه . صحبته نحو عشرين سنة ، وحضرت أنا وإياه على شيخ الإسلام زكريا ، فقرأنا شرح المنهج وشرح التحرير وغير ذلك ، وأجازه بالفتوى والتدريس ، فدرس وأفتى بالجامع الأزهر .

وكان رضى الله عنه عفيفاً لطيفاً ورعاً زاهداً ، خائفاً من الله عز وجل ، جميل المعاشرة حسن الخلق ، تعلو أصوات الطلبة عليه ، ويخاطبونه بألفاظ الجفاء فيتحملهم ، وماسمعته رضى الله عنه يذكر أحداً من المسلمين بسوء . وكان شيخ الإسلام زكريا يحبه أشد المحبة ، وكانت له عدة مؤلفات ، وما رأيته رضى الله عنه زاحم على وظيفة ، ولا سأل أحداً فيما لا يعنيه .

وكنت إذا رأيت وجهه تذكرت أحوال السلف من النور والبريق الذى كان على وجهه رضى الله تعالى عنه .

الشيخ نور الدين المحلى

ومنهم الإمام العالم العلامة الشيخ نور الدين المحلى الشافعى المقيم بالمحلة الكبرى الآن . أخذ العلم عن شيخ الإسلام كمال الدين الطويل ، وعن الشيخ شمس الدين المسيرى ، وعن شيخنا الشيخ شمس الدين الدواخلى بجامع الغمرى

بالقاهرة ، ودرس العلم وأفتى بالمحلة الكبرى ، ووعظ الناس ، وشرح عدة كتب فى فقه الشافعى، وانتفع به خلائق لا يحصون .

وله توجه تام إلى الله تعالى ، وتهجد فى الليل ، ينام الإنس والجن فى الليل ولا ينام ، وله أوراد عظيمة ، ولم يزل من صغره إلى الآن على الأخلاق الحسنة والأدب والحياء ، وكف الجوارح عما لا ينبغى ، يفرح إذا أدبر عنه الناس إلى الاشتغال على أحد من أقرانه ، وهذا من علامة إخلاصه ، رضى الله تعالى عنه ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله على ممر الأوقات إلى الممات ، آمين .

مات رضى الله عنه فى شهر ذى القعدة ، سنة ثلاثين وتسعمائة ودفن فى مقبرة المحلة الكبرى رضى الله تعالى عنه .

الشيخ شمس الدين المغربى

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد العالم العامل الشيخ شمس الدين المغربى الشافعى، المقيم بثغر رشيد ، صحبته نحو عشرين سنة ، فرأيته على قدم عظيم فى العلم والورع والزهد والخشية وحسن السيرة ، من حياء وكرم نفس وكثرة أدب .

أخذ العلم عن جماعة من علماء مصر ، وأجازوه بالفتوى وتدريس العلم ، فدرس وأفتى بعد الشيخ شمس الدين ، وانتفع به خلائق لا يحصون ، ولم يزل مقبلا على العلم والعمل به من صغره إلى وقتنا هذا ، يقرى الضيف فى بلاده لكل وارد عليه ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ووراثة محمدية ، إذا تكلم بكلام يخطف القلوب من حلاوة كلامه ، وعلى وجهه خشية العلماء العاملين من كثرة البكاء ورقة القلب .

الشيخ أبو الفتح بن الخلال الفوى

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المقبل على عبادة ربه الشيخ أبو الفتح ابن الخلال الفوى الشافعى .

صحبته نحو عشرين سنة فما أظن أن كاتب الشمال كتب عليه خطيئة واحدة كثير الصيام والقيام ، وحفظ الجوارح ، وكف البصر .

أخذ رضى الله عنه العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ أبى الحسن البكرى ، وأذن له الشيخ أبو الحسن أن يحرر كتبه بعد موته لما علمه عنه من تحقيق العلم ، وما رأيت أصبر منه على الوحدة ، أوقاته كلها معمورة بالخير ليلا ونهاراً ، وما رأيته قط يتردد إلى أحد من أبناء الدنيا ، ولا زاحم على وظيفة دنيوية ، ولا ذكر أحداً من أقرانه بسوء ، ولا حسد أحداً منهم على جاه ، رضى الله تعالى عنه .

الشيخ أبو بكر الجيزى

ومنهم الشيخ الصالح الورع الزاهد الإمام العلامة الشيخ أبو بكر الجيزى الشافعى ، صحبته نحو ثلاثين سنة ، فما رأيت أحداً من أقرانه على قدمه فى حفظ الجوارح وكثرة الصمت والورع والزهد ، وربما يمكث رضى الله عنه اليوم الكامل لا يتكلم بكلمة لغو ، أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملى ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، ودرس العلم بالجامع الأزهر ، وانتفع به خلائق ، ومجلسه مجلس علم وأدب وحياء وخشية ، زارنى رضى الله عنه فى مكانى مرة وحصل لى منه حظ عظيم ، ولا أقوم له بجزاء تلك الخطوات ، فأسأل الله العظيم أن يحشرنا فى زمرته ليأخذ بيدى فى يوم الدين ، فى عرصات القيامة آمين .

الشيخ شمس الدين المحلى

ومنهم الأخ الصالح العلامة الشيخ شمس الدين المحلى الشافعى ، أحد طلبة الشيخ شهاب الدين الرملى وغيره ، أخذ رضى الله عنه العلم عن جماعات ، وتفنن فى العلوم ، وأجازوه بالفتوى والتدريس ، وأفتى وانتفع به خلائق ، وظهر علمه

وفضله العام والخاص ، وله الاعتقاد التام فى طائفة الفقهاء والصوفية ، والتهجد العظيم فى الليل ، جميل المعاشرة ، كريم النفس ، حسن الأخلاق ، ولم يزل فى ازدياد إن شاء الله تعالى . صحبته عشر سنين فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل تربى على تقوى وورع وخوف من الله تعالى ، رضى الله عنه ولطف به آمين .

الشيخ سلام الفيومى

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ سلام الفيومى ، صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، رضى الله تعالى عنه ، يحب الخمول ، ويكره الشهرة ، قليل الكلام ، جميل المعاشرة ، حسن الاعتقاد فى العلماء والصالحين ، وما سمعته يذكر أحداً من المسلمين بسوء ، ولا يزاحم على شىء من أمور الدنيا ، يقتنع بالرغيف اليابس من غير إدام ، ولم يزل رضى الله عنه معرضاً عن أبناء الدنيا لا يتردد على أحد منهم إلا لضرورة .

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ العلامة عميرة ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ شهاب الدين عبد الحق وجماعة ، وتبحر فى العلوم على يدهم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه ، وانتفع به خلائق ، وهو رضى الله عنه من أشد الناس حباً لطائفة الفقراء .

وأخبر رضى الله عنه بأمور يجدها عند مجالستهم تدل على صدق الاعتقاد وقال : إنه يحصل له أنس عظيم إذا جلس عند أحد منهم حتى يمتلىء قلبه أنساً ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علما وعلماً وزهداً وورعاً ، وأن ينفعنا ببركاته ، آمين اللهم آمين .

الشيخ يحيى المسيرى

ومنهم الشيخ الصالح الورع سيدى يحيى المسيرى رضى الله عنه ، رأس المدرسين بالجامع الأزهر .

نشأ فى علم وأدب ونسك وعبادة ، لى فى صحبته من حين كان دون البلوغ ، فلم أر عليه شيئاً ، يشينه فى دينه ، وما سمعته يذكر أحداً بسوء .

أخذ رضى الله عنه العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى وأضرابهم ، وتبحر فى العلوم ، وشرح منهاج النووى شرحاً لطيفاً ، وجمع فيه فوائد كثيرة ، وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس، وانتفع به خلائق ، وهو من الكرم على جانب عظيم ، وله اعتناء عظيم بقضاء حوائج الناس تبعاً لوالده كما تقدم ذلك فى ترجمته ، وله الاعتقاد العظيم فى طائفة الصوفية ، وتهجد عظيم بالليل .

وأما حلاوة منطقه وحسن عشرته فأمر عظيم لايكاد جليسه يمل من طول مجالسته ، ومارأيته قط يزاحم على شىء من أمور الدنيا ، ولا يذكر أحداً من أقرانه بسوء ، ولا غيرهم ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله .

الشيخ أحمد الإخنائى

ومنهم الأخ الصالح سيدى أحمد الإخنائى . صحبته نحو نيف وأربعين سنة ، فمارأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه . بل نشأ فى عفة وخير ، وانكباب على العلم والعمل ، وحفظ الجوارح من الآفات كريم النفس ، جميل المباشرة ، وما سمعته قط يذكر أحداً من أقرانه بسوء ، وله تهجد عظيم فى الليل ، وله حرص عظيم على إخفاء أعماله الصالحة ، حتى لايكاد أحد من إخوانه يطلع على سر منها .

وبت فى جامع الأزهر ليالى كثيرة ، فكنت أطوف فى الأروقة فى الليل ، فكنت أجد غالبهم نائماً إلا هو ، فإما يقرأ القرآن بتدبر ، وإما يتفكر فى أمر معاده ويبكى .

أخذ رضى الله عنه العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ عبد الحق

السنباطى والشيخ زكريا ، والشيخ برهان الدين بن أبى شريف ، والشيخ كال الدين الطويل ، وتبحر على يدهم فى العلوم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس وانتفع به خلائق . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين .

الشيخ إبراهيم العلقمى

ومنهم الأخ الصالح الورع الزاهد العالم العلامة الشيخ إبراهيم العلقمى . أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الرملى ، والشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شمس الدين العلقمى ، والشيخ شهاب الدين البلقينى ، وأضرابهم . وبرع فى العلوم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس .

وصحبته عدة سنين فرأيته على جانب عظيم من المروءة والعفة والزهد والورع وتلاوة القرآن . وما سمعته رضى الله عنه قط يذكر أحداً من إخوانه ولا غيرهم بسوء ، لم يزل مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل .

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علماً وعملا وزهداً وورعاً وأن يفسح فى أجله حتى ينفع المسلمين آمين .

* * *

وقد بقى جماعة كثيرة يضيق الزمان عن ذكرهم هنا ولكن ذكرناهم فى كتاب المفاخر والمآثر فى علماء القرن العاشر . وهو كتاب نفيس . فمن أراد زيادة على ماذكرناهها فليراجعه والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله رب العالمين . .

* * *

وأما من صحبناهم من السادة الحنابلة رضى الله عنهم فمنهم سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة .

الشيخ تقى الدين

ابن شيخنا ومولانا شيخ الإسلام شهاب الدين الحنبلى الفتوحى ، الشهير بابن النجار .

صحبته نحو أربعين سنة فما وجدت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، بل نشأ فى عفة وصيانة وأدب وعبادة ونسك .

أخذ رضى الله عنه العلم عن والده شيخ الإسلام المذكور ، وعن جماعة من أرباب المذاهب المختلفة ، وتبحر فى العلوم حتى انتهت إليه الرئاسة فى مذهبه ، وأجمع الناس على أنه إذا انتقل إلى رحمة الله تعالى مات مذهب الإمام أحمد فى مصر ، وسمعت هذا القول مراراً من شيخنا شهاب الدين الرملى رحمه الله تعالى .

وما سمعته قط يستغيب أحداً من أقرانه ولا غيرهم ولا حسد أحداً على شىء من أمور الدنيا ولا زاحم عليها . وولى القضاء بسؤال جميع أهل مصر فأشار إليه بعض العلماء بالولاية وقال : يتعين عليك ذلك ، فأجاب مصلحة للمسلمين ، وما رأيت أحلى منه منطقاً ولا أكثر أدباً مع جليسه حتى يود أنه لا يفارقه ليلا ولا نهاراً .

وبالجملة فأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفى ، فأسأل الله تعالى أن يزيده علماً وعملا وورعاً وزهداً إلى أن يلقاه وهو راض عنه . آمين .

الشيخ شهاب الدين البهوتى

ومنهم الإمام العالم الصالح الشيخ شهاب الدين البهوتى ، صحبته نحو أربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئاً يشينه فى دينه ، فإنه نشأ فى عبادة ونسك وخدمة للأولياء . خدم القطب الغوث سيدى محمد الشربينى عشر سنين ، ووقع على

يديه كرامات وخوارق ، وكان الشيخ محمد يحبه حباً شديداً . وأخبره أنه إذا مات وغسل لايأخذ أحد من ماء غسله شيئاً إلا أبرأ الأكمه والأبرص والأجرب ، فتسامع أولياء عصره بذلك فصبوا عليه نحو أربعين جرة من ماء البحر ، فلم يقع منها إلى الأرض نقطة واحدة ، فعلموا أن الأولياء تلقوه من على الدكة ، وأخذوه للتبرك رضى الله عنه .

أخذ العلوم عن شيخ الإسلام شهاب الدين الشيشيني ومن شيخ الإسلام شهاب الدين الفتوحي وغيرهما ، وتبحر فى العلوم رضى الله عنه ، وانحصر علم المذهب فيه فى مصر وقراها . والغالب عليه إخفاء أعماله الزكية تبعاً لشيخه الشيخ محمد الشربيني ، فإنه من اللاثية[1] رضى الله عنه . له تهجد عظيم فى الليل ، وغالب أيامه صيام ، ومارأيت فى أقرانه أعف ولا أزهد منه فى الدنيا ، وإنما يتظاهر بحبه للدنيا فى بعض الأوقات ستراً لحاله . فإنى خالطته زماناً مخالطة شديدة وعرفت حاله .

ولما وقع التفتيش على أموال السلطان من جهة العلماء والرزق والأوقاف جاءنى وقال لى مقصودى أنهم يفتشوننى أيضاً على الشريعة ، وينظر مانقص من أحكامها فيعيدوه ، ويأمر الناس بالعمل به . فكان ذلك سبب تأليفى كتاب « تنبيه المغترين » على ماخالفوا فيه هدى الصحابة والسلف والتابعين والعلماء العاملين . وبينت فيه مانقص من أعلام الدين ، وله ذوق عظيم فى طريق القوم ، ماأظن أحداً من علماء مصر شاركه فيه الآن ، ويعرف ألقاب القوم كلها .

وقد أرسل لى مرة يقول : إذا سألك أحد حاجة فأشركها بالصباغ . فلم أعرف مراده بالصباغ حتى أعلمنى أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن

---

(١) سبق التعريف بها .

حضرته صلى الله عليه وسلم صباغة لكل من دخلها بالخير لكونه رحمة العالمين.
وأما أهل الدوائر الكبرى فيعرفهم ويعرف مراتبهم حتى كأنه تربى بينهم .
فأسال الله تعالى أن يزيده من فضله ويفسح فى أجله لمنافع المسلمين آمين
اللهم آمين .

* * *

وأما بقية أصحابنا فقد ذكرناهم فى كتابنا المفاخر والمآثر فى علماء القرن
العاشر فمن أراد زيادة على ذلك فليراجعه والله أعلم .

* * *

خاتمـــة

وليكن ذلك آخر كتابنا الطبقات الصغرى وآخر كتابنا لواقح الأنوار القدسية فى مناقب العلماء والصوفية إلى عصرنا هذا وهو سنة ثلاث وألف .

واعلم يا أخى أننى لم أذكر من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين إلا من له كلام فى الطريق أو حال ينهض همة الطالب دون ضد ذلك . كما أننى لم أذكر من الصوفية والعلماء الذين أدركتهم إلا من كان لى بهم صحبة أو قرأت عليهم شيئاً من العلوم ، أو أخذ على العهد كما مر بيانه فى هذا الكتاب وفى مواضع من أثنائه . فما تركت ذكر مناقب من تركت استهانة بحقوقهم وإنما ذلك لما ذكرناه .

وإيضاح ذلك ماذكره الشيخ عبد العزيز الديرينى فى منظومته فى مناقب العلماء . وذلك أن الزمان لايخلو من وجود مائة ألف ولى وأربعة وعشرين[1] فأسأل الله أن ينفعنا ببركاتهم وأن يمدنا بمددهم نحن وإخواننا وأن يحشرنا فى زمرتهم وتحت لوائهم ولا يخالف بنا عن طريقتهم آمين يارب العالمين .

(١) فى الأصل إحدى وستين وتسعمائة ولكنه ذكر التاريخ الذى ذكرناه .

فهرست

